

معالم الرحمة
في عَلاقَةِ النَّبِيِّ ﷺ بمُجْتَمَعِه

إعداد

د. جمال بن محمد السيّد عبد الحميد

الباحث بالشؤون العلمية

بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة النبوية

من أبحاث المؤتمر الدولي
نبي الرحمة محمد ﷺ

المنعقد في الفترة ٢٣ – ٢٥ شوال ١٤٣١هـ الموافق ٢ – ٤ أكتوبر 2010م
برعاية خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز – حفظه الله–

والذي نظمته
الجمعية العلمية السعودية للسنة وعلومها (سنن)



www.sunnah.org.sa



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإنَّ الله ﷻ قد قسم لعباده في هذه الحياة الدنيا من رحمته ما حصل لهم به الكثير من المِنن والنِّعم، واندفع به عنهم الكثير من البلايا والنِّقَمِ، وكان من أعظم تلك النعم ـ التي لا تُعدُّ ولا تُحصى ـ نعمة بعثة النبيِّ المجتبى والرسول المصطفى ﷺ، رحمةً للعالمين، وهدايةً للخلق أجمعين، كما قال جل وعلا: ﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. فكانت بعثته ﷺ ورسالته رحمة، وأقواله وأفعاله وسيرته كلها رحمة، والدين الذي جاء به دين الرحمة، والأمة التي بعث فيها أمة مرحومة، فلقد كان ﷺ: «**رحمة مهداة**» فنعمت الهدية من ربِّ البرية.

ولقد أدَّبه ربه – سبحانه –أحسن الأدب، وحباه من الأخلاق الفاضلة أكملها، ومن السلوك القويم أرفعه، حتى غدا قرآناً يمشي بين الناس، صلوات ربي وسلامه عليه.

وكان على رأس هذه الأخلاق الفاضلة، والخلال الحميدة التي حباه الله إياها: خُلُقُ «**الرحمة**»، فكان خُلُقاً فاضلاً تخلَّق به، وسلوكاً عَمَليّاً تعامل به مع كل من حوله، وقيمةً ساميةً دعا الخلق كلهم إليها، تلك الرحمة التي كانت أساسَ دعوته، ولبَّ لبابِ رسالته، ودستورَ دولته.

رحمةٌ عمَّت جميع الخلق دون تفرقة على أساس من جنسٍ أو لونٍ أو عِرْقٍ، ورحمة تخطت حدود المكان فوصلت أنوارها إلى أقاصي الدنيا، ورحمةٌ لم تتقيد بزمنٍ فبقيت آثارُها حتى يومنا هذا، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها. نعم إنها رحمة للبشرية كلها!!

حمل الموفَّقون من أتباع محمد ﷺ من بعده لواءَها مرَّ الدهور وتقادم العصور، فانفتحت لهم قلوب العباد قبل أن يفتحوا البلاد، فعمَّ نورها، وسعد كثير من الخلق بالعيش في كنفها، ووجدوا الأمن والأمان في ظلها، حتى شهد المنصفون من غير المسلمين بفضلها، ووقفوا بإعجاب وانبهار أمام عظمتها.

ومع مرور الأزمنة والأيام، وفي ظل الوَهَنِ الذي أصاب أمة الإسلام، وما تبع ذلك من تداعي الأمم عليها تداعي الأكلة على قصعتها؛كما أخبر بذلك سيد الأنام، اجترأ قومٌ من أعداء المِلة والدين، من الحاقدين المتربصين، على مقام النبوة، فطعنوا في شخصه وأخلاقه، قاصدين النيل من أخص خصائصه ﷺ،



وهي صفة «**الرحمة**»؛ ليصلوا من وراء ذلك إلى الطعن في دعائم هذا الدين، ووصمه بالتطرف والعنف والقسوة والإرهاب، إلى غير ذلك من التُّهمِ التي ألصقوها بالإسلام ونبيِّ الإسلام كذباً وزوراً. الأمر الذي استنهض همم الغيورين من أبناء الأمة الإسلامية، فهبُّوا للدفاع عن نبيِّهم، وردِّ هذا البهتان والكيد إلى نحور عدوهم.

ولا شك أنها جهود مباركة مخلصة، لكن الردَّ على هذه الهجمة الحاقدة، والتصدي لهذه الحملة الماكرة المغرضة، لا تنفع معه الاندفاعات الحماسية، ولا تصلح لمواجهته العواطفُ الآنية، وإنما يحتاج ذلك إلى جهود منظمة، تتبناها جهاتٌ علميةٌ مؤهلةٌ، تُبنى هذه الجهود على تأصيل شرعي متين، وأساليب منطقية مقنعة، حتى تؤتي هذه الجهود ثمارها.

ويأتي ضمن هذه الجهود العلمية المؤصلة ـ إن شاء الله ـ هذا المؤتمر المبارك، الذي نظمته ودعت إليه «الجمعية العلمية السعودية للسنة النبوية وعلومها» بالمملكة العربية السعودية، والذي تلقينا دعوة كريمة من القائمين عليه للمشاركة ببحث في أحد محاوره، فشكر الله للقائمين على هذا المؤتمر، والمنظمين له، وبارك في جهودهم، وجعل ذلك في موازين حسناتهم، آمين.

ويسرني أن أشارك في أعمال هذا المؤتمر ببحث عنوانه: «**معالم الرحمة في**

علاقة النبي ﷺ بمجتمعه»، وذلك ضمن موضوعات المحور الأول الخاص بمعالم الرحمة في شخص النبي ﷺ وسيرته.

وقد جعلت موضوع هذا البحث مشتملاً ـ بعد المقدمة ـ على تمهيد وفصلين، تحت كل فصل مباحث، وذلك على النحو الآتي:

- **تمهيد:** في تعريف «الرحمة» لغة واصطلاحاً.
- **الفصل الأول: الرحمة بين ربانية المصدر وعظمة الرسالة المحمدية،** وفيه أربعة مباحث:
  - **المبحث الأول:** بيان ربانية صفة الرحمة.
  - **المبحث الثاني:** الرحمة أساس الرسالة المحمدية، وخُلُق عظيم من أخلاق صاحبها، وفيه ثلاثة مطالب:
    - المطلب الأول: كمال أخلاقه ﷺ قبل البعثة وبعدها.
    - المطلب الثاني: الرحمة أخصُّ خصائصه وأبرز صفاته وأخلاقه ﷺ.
    - المطلب الثالث: دعوته ﷺ أمته إلى التخلق بصفة الرحمة.
  - **المبحث الثالث:** بيان أن بعثته ﷺ رحمة للعالمين، وأن أمته أمة مرحومة، وفيه مطلبان:



- ▪ المطلب الأول: بيان أن بعثته ﷺ رحمة للعالمين.
- ▪ المطلب الثاني: بيان أن أمته أمة مرحومة.

- ○ **المبحث الرابع**: خصائص رحمته ﷺ وسماتها.

- • **الفصل الثاني: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالمجتمع**، وفيه ثمانية مباحث:

- ○ **المبحث الأول**: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بأمته على وجه الإجمال.
- ○ **المبحث الثاني**: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بأصحابه وإخوانه.
- ○ **المبحث الثالث**: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بأهل بيته وأقاربه وأرحامه، وفيه ثلاثة مطالب:
  - ▪ المطلب الأول: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بنسائه وزوجاته.
  - ▪ المطلب الثاني: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بأولاده وأسباطه.
  - ▪ المطلب الثالث: معالم الرحمة في علاقته ﷺ ببقية أقاربه وأرحامه.
- ○ **المبحث الرابع**: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بضعفة المجتمع، وفيه ستة مطالب:

والمذنبين، وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالجاهلين.
- المطلب الثاني: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالعصاة والمذنبين.

- **المبحث السابع**: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالمسافرين والغرباء، وفيه مطلبان:
  - المطلب الأول: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالمسافرين.
  - المطلب الثاني: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالغرباء.
- **المبحث الثامن**: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالأعداء والمخالفين، وفيه ثلاثة مطالب:
  - المطلب الأول: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالمنافقين.
  - المطلب الثاني: معالم الرحمة في علاقته ﷺبالكافرين.
  - المطلب الثالث: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالمعاهدين والمستأمنين.

- **الخاتمة**: وفيها خلاصة البحث وبعض التوصيات.
- **الفهارس**.

* * *



تمهيد
في تعريف الرحمة لغةً واصطلاحاً

أ ـ تعريف الرحمة لغة:

تدور كلمةُ الرحمة في اللغة حول معاني: الرِّقَّة، والرَّأْفَة، والعَطف.

يقال: رَحِمَه، يَرْحَمُه، رَحْمَةً، ومَرْحَمَةً، ورُحْماً، ورُحُماً: إذا رَقَّ لـه، وتَعَطَّـف عليه، فهو مَرْحُومٌ، ومُرَحَّمٌ، شُدِّدَ للمبالغة.

والفاعلُ: رَاحِمٌ، وفي المبالغة: رَحِيمٌ، ورَحُومٌ، وهو الكثير الرحمةِ، والثاني منهما للمذكر والمؤنث. ورحَّمَ عليه تَرْحيماً، وتَرَحَّمَ عليه ترَحُّماً: رَحِمَهُ، أو: دعا له بالرحمة، فقال: رحمه الله.

واسْتَرْحَمَه: سَأَلَه الرَّحْمَةَ.

والرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ: اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، والرحمن أشدُّ مبالغةً، أي: الكثيرُ الرحمةِ، إلا أن الرَّحمن مُخْتَصٌّ بالله تعالى لا يجوز أن يُسمَّى به غيرُه[1].

(١) ينظر: حول تعريف الرحمة لغة: معجم مقاييس اللغة ٢/ ٤٩٨ (رحم)، مجمل اللغة ٤٢٤ (رحم)، أساس البلاغة ص ١٥٨ (رحم)، مختار الصحاح ١/ ٢٣٨ (رحم)، لسان=

ب ـ تعريف الرحمة اصطلاحاً:

يرتبط المعنى الاصطلاحي للرحمة بالمعنى اللغوي ارتباطاً وثيقاً، ومما ورد من التعريفات لمصطلح الرحمة:

١ـ قال الراغب الأصبهاني: «الرَّحمة: رِقَّةٌ تقتضي الإحسانَ إلى المرحومِ»[1].

٢ـ وقال القرطبي: «الرَّحمةُ: رقَّةٌ وحُنُوٌّ يجده الإنسانُ في نفسه عند رؤيةِ مبتلىً أو صغيرٍ أو ضعيفٍ يحمله على الإحسان له، واللطفِ والرفقِ به، والسعيِ في كشفِ ما به»[2].

٣ـ وقال الجرجاني: «هي إرادة إيصال الخير»[3].

٤ـ ولعل من التعريفات الجامعة في هذا الباب: أنَّ الرحمةَ هي: «رقةٌ في الطبع، تُثْمِر الرِّفْق والرَّأفة ولينَ الجانب، وهي خلقٌ رفيعٌ يحرِّك عاطفةَ الإنسان بالخير والبر»[4].

=العرب ٢/ ١٦١١ (رحم)، المصباح المنير ١/ ٢٢٣ (رحم)، القاموس المحيط ١٤٣٦، المعجم الوسيط ١/ ٣٣٥ (رحم).

(١) مفردات ألفاظ القرآن: ١٩٦ (رحم).

(٢) انظر: فيض القدير ٦/ ٤٢٢.

(٣) التعريفات: ١٤٦.

(٤) خطب مختارة ـ وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، بالمملكة العربية السعودية ـ: ٢٢٢.

ويمكن أن نخلص من مجموع هذه التعريفات إلى أن الرحمة: خلق محمود يقوم على رقةٍ في القلب، تورثُ رفقاً وليناً وحنُوّاً وعطفاً، يقتضي ذلك كله الإحسان إلى المرحوم، والرغبة في إيصال الخير إليه؛ ولذلك فإن القلب القاسي، الخالي من الرِّقَّة والعطفِ والرأفة، قلبٌ منزوع الرحمة، شقيٌّ صاحبه، كما قال ﷺ: «**لا تُنزع الرحمة إلا من شقيٍّ**»[1].

قال الطيبي معلقاً على هذا الحديث: «لأن الرحمة في الخلق رقَّةُ القلب، ورقَّته علامة الإيمان، ومن لا رقة له لا إيمان له، ومن لا إيمان له شَقِيٌّ، فمن لا يُرزق الرِّقةَ شَقِيَ»[2].

***

(١) أخرجه أبو داود، في الأدب، برقم: ٤٩٤٢، والترمذي، في البر والصلة، برقم: ١٩٢٣، وقال: «حديث حسن»، وصححه الحاكم في المستدرك ٤/ ٢٤٨-٢٤٩، بلفظ: «**ما نزعت الرحمة...**»، ووافقه الذهبي، وحسَّنه السيوطي في الجامع الصغير ٩٨٧٠ (مع فيض القدير)، ووافقه الألباني في صحيح الجامع: ٧٤٦٧، وأخرجه غير هؤلاء، عن أبي هريرة.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٦/ ٤٢٢.

الفصل الأول

الرَحمةُ بين رَبَانيَةِ المَصْدَرِ وعظمةِ الرِسَالة المحمدية

وفيه أربعة مباحث:

- **المبحث الأول: بيان ربَّانية صفة الرحمة.**
- **المبحث الثاني: الرحمةُ أساسُ الرسالة المحمدية وخلق عظيم من أخلاق صاحبها.**
- **المبحث الثالث: بيان أن بعثته ﷺ رحمةٌ للعالمين، وأن أمته مرحومة.**
- **المبحث الرابع: خصائص رحمته ﷺ وسماتها.**



ابيض



المبحث الأول

بيان ربَّانية صفة الرحمة

إن الرحمة من صفات الله ﷻ. ومن أعظم أسمائِه الحسنى الدالة على رحمته: الرحمن الرحيم؛ فهما اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، أي: ذو الرحمة التي لا نظيرَ له فيها[1].

وقد ورد ذكر هذين الاسمين العظيمين في كتاب الله مجتمعين ومنفردين في مواطن كثيرة، من ذلك: قوله ﷻ في فاتحة الكتاب: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]، وقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [الرحمن: ١-٢]، وقوله جل وعلا: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

و«**الرحمن**» أشد مبالغة من «**الرحيم**»؛ لأن الرحمن: ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا وللمؤمنين في الآخرة، والرحيم: ذو الرحمة للمؤمنين يوم القيامة، كما ذهب إلى ذلك أكثر العلماء[2].

واسمه سبحانه «**الرحمن**»خاصٌّ به، لا يُسمَّى به غيره، ولهذا فإنه سبحانه

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ١٢٤.

(٢) أضواء البيان ١/ ٤٨، وانظر: المرحومون في السنة النبوية: ٢٧-٣٠.

في التسمية بدأ باسم الله، ووصفه بالرحمن؛ لأنه أخصُّ وأعرف من الرحيم؛ فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص[1].

ومع أن رحمته سبحانه التي أنزلها بين عباده في الدنيا هي رحمة واحدة من مئة رحمة[2]، إلا أنها وَسِعت الخلقَ أجمعين: في أرزاقهم، وأسباب معاشهم، وجميع مصالحهم، وعمَّت المؤمن والكافر، والصالحَ والطالحَ، قال أيوب السختياني، رحمه الله: «إنَّ رحمةً واحدةً قسمها الله تعالى في دار الدنيا وأصابني منها الإسلام، إني لأرجو من تسعٍ وتسعين رحمة ما هو أكثر من ذلك»[3].

وقال الإمام النووي رحمه الله عند كلامه على أحاديث الرحمة من صحيح مسلم: «هذه الأحاديث من أحاديث الرجاءِ والبِشارة للمسلمين، قال العلماء: لأنه إذا حصل للإنسان من رحمةٍ واحدةٍ في هذه الدار المبنية على الأكدار: الإسلام والقرآنُ والصلاةُ والرحمةُ في قلبه، وغير ذلك مما أنعم الله – تعالى- به،

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ١٢٦.

(٢) كما في الحديث الذي صح عنه ﷺ أنه قال: «**جعل الله الرحمةَ مئة جزء، فأمسك عنده تسعةً وتسعين وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق**». أخرجه مسلم ٤/ ٢١٠٨ برقم: ٢٧٥٢، ك: التوبة.

(٣) مجالس في تفسير قوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ** ﴾ ص: ١٤٩.

فكيف الظنُّ بمئة رحمةٍ في الدار الآخرة، وهي دار القرار ودار الجزاء»[1].

وإن من آثار هذه الرحمةِ الربانية والرأفة الإلهية: تلك النعم العظيمة التي لا تُعَدُّ ولا تحصى، والتي من أعظمها نعمة إرسال الرسل لهداية الخلق إلى طريق الحق، والذين من أعظمهم وأرحمهم وأرأفهم: خاتمهم وقدوتهم رسولنا محمد ﷺ، الذي ختم الله برسالته جميع الرسالات، وجعل الكتاب المنزل عليه آخر الكتب المنزلة من السماء إلى الأرض، مصدِّقاً لما سبقه من الكتب ومهيمناً عليها، كما قال تعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ** ﴾ [المائدة: ٤٨].

وإن من آثار هذه الرحمة الإلهية أيضاً: ما يُشاهد من عظيم إحسان الله تعالى إلى خلقه، وجوده وكرمه عليهم، وما آتاهم من خيرات الدنيا والآخرة[2].

ومن دلائل هذه الرحمة أيضاً: رفعُه سبحانه الحرج والمشقة عن عباده ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ [الحج: ٧٨]، وجعلُه التيسيرَ هو المراد من التكاليف الشرعية، لا المشقة والعنت ﴿ **يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ** ﴾ [البقرة: ١٨٥].

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٧/ ٦٨ـ٦٩.

(٢) انظر: شرح أسماء الله الحسنى: ١٥٠ـ١٥١.

إلى غير ذلك من دلائل رحمته وآثار رأفته سبحانه.

فعلى العبد المسلم أن يكون على يقين من سعة رحمة الله تعالى، وليعلم أنه سبحانه أرحمُ بعباده من كل شيء، كما قال ﷺ: «**للهُ أرحمُ بعباده من هذه المرأةِ بولدِها**»[1]، وأنَّ ما وُفِّق إليه العبد من عمل الخير فإنه برحمة الله وتوفيقه له، وأن أحداً من الخلق لن يدخل الجنة بعمله، وإنما برحمة أرحم الراحمين، وأن رحمته سبحانه قريبةٌ من عباده المتقين وأوليائه المحسنين ﴿ **إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وأن على المسلمين أن يتخلقوا بهذا الخلق العظيم فيما بينهم، فيرحم بعضهم بعضاً، كما حثهم على ذلك نبيهم ﷺ وأوصاهم به.

***

---

(١) قال ذلك ﷺ «**حينما رأى امرأة من السَّبي تبحث عن رضيعها، فلما وجدته ألصقته بصدرها، وأخذت ترضعه**». أخرجه البخاري ١٠/ ٤٢٦، برقم: ٥٩٩٩، ك: الأدب، ومسلم ٤/ ٢١٠٩، برقم: ٢٧٥٤، ك: التوبة.

المبحث الثاني

الرحمةُ أساسُ الرسالة المحمدية وخلق عظيم من أخلاق صاحبها

لا يخفى ما لمكارم الأخلاقِ ومحاسِنها من مكانةٍ رفيعةٍ في شريعة الإسـلام، وأنها ركيزة مهمة، وركنٌ قويٌّ من أركان بعثة النبي محمد ﷺ، يؤكد ذلك قوله ﷺ: «**إنما بُعثت لأتمِّم مكارمَ الأخلاق**»، وفي رواية: «**صالحَ الأخلاق**»[1].

وفي هذا المبحث نشير إلى كمال أخلاقه ﷺ، وأنَّ الرحمةَ أخصُّ خصائصه وأعظمُ أخلاقِه، وذلك من خلالِ المطالب الآتية:

المطلب الأول: كمال أخلاقه ﷺ قبل البعثة وبعدها.

لقد حبا الله نبيَّه محمداً ﷺ قبل بعثته من كريم الأخلاق وحميد الخصال ما شهد له به أعداؤه قبل أصدقائه، حتى عُرِفَ في شبابه بين قومه بـ «**الصادق الأمين**»، فلقد كان ﷺ كما وصفته خديجة أم المؤمنين ﵂: «**يَصِلُ الرَّحِمَ،**

(١) أخرجه أحمد ١٤/ ٥١٢ برقم: ٨٩٥٢، والبخاري في الأدب المفرد برقم: ٢٧٤، والحاكم ٢/ ٦١٣، وقال: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم: ٤٥، ونقل عن ابن عبد البر قوله: «حديث صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره».



ويَحْمِلُ الكَلَّ، ويُكْسِبُ المعدومَ، ويُقري الضَّيفَ، ويُعين على نوائبِ الدَّهرِ»[1].

ولما بعثه ربُّه برسالته إلى الثَّقلين بالهدى ودين الحق، أتمَّ عليه نعمته، فجمع له من كمال الأخلاق ومحاسن الشِّيم ما بلغ به الكمال البشري، فكان كما وصفه ربه عَزَّ وَجَلَّ بقوله: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [القلم: ٤]، وكما وصفته عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما سئلت عن خلقه بقولها: «**كان خُلُقُه القرآنَ**»[2].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومعنى هذا أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ صار امتثالُ القرآن ـ أمراً ونهياً ـ سَجيَّة له، وخلقاً تطبَّعه، وتركَ طبعَه الجِبِلِّي... هذا مع ما جَبَلَه الله عليه من الخلق العظيم»[3].

أجل، إن عظمة الرسالةِ الخاتمةِ تقتضي أن يصطفي اللهُ لها أعظمَ خلقِه، وأكملَهم خُلُقاً، وأرفعَهم قدراً، وأسماهم روحاً، حتى يكون أهلاً للاصطفاء الربَّاني لحمل رسالة الهداية والنور للبشرية جمعاء، فكان هذا المصطفى والمجتبى محمداً ﷺ، وكانت هذه الأخلاق العظيمة التي منحه الله إياها وجَبَلَه عليها

---

(١) أخرجه البخاري ١/ ٢٣، برقم: ٣، ك: بدء الوحي، ضمن حديث بدء الوحي الطويل.

(٢) أخرجه مسلم ١/ ٥١٢، برقم: ٧٤٦، ك: صلاة المسافرين، ضمن حديث طويل في صفة صلاته ﷺ بالليل.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/ ١٨٩.

أهمَّ عوامل نجاحه في دعوته ونشر رسالة الإسلام الخالدة.

* * *

المطلب الثاني: بيان أن الرحمة أخصُّ خصائصه وأبرز صفاته وأخلاقه ﷺ.

لقد كان على رأس الأخلاق الفاضلة، والخلالِ الحسنةِ لنبينا ﷺ: الرحمةُ والشفقةُ، فطرةً وجِبِلَّةً، قال الله ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال سبحانه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨].

قال أبو بكر بن طاهر: «زَيَّن الله تعالى محمداً ﷺ بزينةِ الرحمة؛ فكان كونه رحمة، وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق»[١].

وقال الطاهر بن عاشور: «أُرسِلَ محمد ﷺ مفطوراً على الرحمة، فكان لينه رحمةً من الله بالأمة في تنفيذ شريعته بدون تساهل، وبرفق وإعانة على تحصيلها؛ ولذلك جعل لينه مصاحباً لرحمةٍ من الله أودعها الله فيه»[٢].

ولما كانت صفةُ الرحمة في النبي ﷺ فطرةً وجِبِلَّةً أودعها الله في قلبه؛ فقد

(١) الشفا ١/ ١٥.

(٢) التحرير والتنوير ٤/ ١٤٥. وانظر: الرحمة والعظمة في السيرة النبوية: ٤٣ ـ ٤٤.

غدت هذه الصفةُ أحبَّ الصفات إليه ﷺ، وأخصَّ خصائصه على الإطلاق، تلك الخصيصة التي ساد بها العالم وقاده[1]، كما دلَّت على ذلك نصوص الكتاب والسنة التي سيأتي ذكر طرف منها في ثنايا هذا البحث.

* * *

المطلب الثالث: دعوته ﷺ أمتَه إلى التخلق بصفة الرحمة.

لم يقتصر الأمر على تخلُّقِ النبي ﷺ بخلق الرحمةِ، بحيث صارت سمةً مميزةً لتصرفاته وأفعاله وأقواله فحسب، بل تعدَّى ذلك إلى وصيَّتِه الدائمة للأمة بالرحمة والتراحم فيما بينهم في كل مناسبة.

قال الحافظ ابن ناصر الدين: «وهذا الرسول... الذي أرسله الله للعالمين رحمةً، وأتمَّ به على المؤمنين النعمةَ، وجعله نبيَّ الرحمةِ والمراحمِ، هو الذي أمرَ أمَّتَه المرحومةَ بالتعاطفِ والتراحمِ في أحاديث مسندةٍ مرضية...»[2].

ومن هذه الأحاديث المسندة التي دعا فيها نبيُّنا ﷺ إلى الرحمة والتراحم: قوله ﷺ: «**الرَّاحِمون يرحمهم الرَّحْمنُ، ارْحَمُوا من في الأرضِ يَرْحَمُكُم من في السماء**»[3].

---

(١) انظر: الرسالة الخالدة: ٣٧، نبي الرحمة: ٦.

(٢) مجالس في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ص: ٣٩١.

(٣) أخرجه أبو داود برقم: ٤٩٤١، ك: الأدب، والترمذي، برقم: ١٩٢٣، ك: البر والصلة،=

وقوله ﷺ: «**من لا يَرْحَمِ النَّاسَ لا يَرحمه الله**»[1]، وقولـه ﷺ: «**لا تُنـزَعُ الرحمةُ إلا من شَقِيٍّ**»[2]، وقوله ﷺ: «**إنما يرحمُ اللهُ من عبادِهِ الرُّحماءَ**»[3]. إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة في هذا الباب.

فهكذا كان خلق الرحمة فطرةً فُطر ﷺ عليها، وسُلوكاً سار به بين الخَلقِ، وقيمةً ساميةً سامقةً دعا الناس إلى التحَلِّي بها، وغرسَها فيهم، ودلَّهم على الطريق الموصلةِ إليها[4].

* * *

=والحاكم ٤/ ١٥٩، قال الترمذي: «حديث حسن»، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وهو الحديث المسلسل بالأولية المشهور عن عبد الله بن عمرو وجماعة من الصحابة، وقد استقصى الكلام عليه الحافظ ابنُ ناصر الدين في مجالسه في تفسير قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ**﴾.

(١) أخرجه البخاري ١٣/ ٣٥٨، برقم: ٧٣٧٦، ك: التوحيد، ومسلم ٤/ ١٨٠٩، برقم: ٢٣١٩، ك: الفضائل، واللفظ لمسلم.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري برقم: ١٢٨٤، ومسلم برقم: ٩٢٣، كلاهما في الجنائز، ضمن حديث طويل فيه قصة.

(٤) وينظر حول ما ورد من شهادات علماء الغرب المُنْصِفين للنبي ﷺ بالرحمة والرأفة: نبي الرحمة ﷺ ص: ٣٤ـ ٥٢.



المبحث الثالث

بيان أن بعثته ﷺ رحمةٌ للعالمين، وأن أمته مرحومة

المطلب الأول: بيان أن بعثته ﷺ رحمة للعالمين.

لقد كانت بعثةُ النبي ﷺ ورسالتُه ودعوتُه رحمةً للعالمين، إنسهم وجنِّهم، مؤمنهم وكافرهم، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، قال الحافظ ابن كثير، رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يُخبر - تعالى- أن الله جعل محمداً ﷺ رحمةً للعالمين، أي: أرسله رحمةً لهم كلهم، فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة، سَعِد في الدنيا والآخرة، ومن ردَّها وجَحَدها، خَسِرَ في الدنيا والآخرة»(١).

وقد أكَّد النبي ﷺ هذه الحقيقة وأعلنها بقوله: «**يا أيها الناس، إنما أنا رحمةٌ مهداةٌ**»(٢)، وقوله: «... **إنما بعثني رحمةً للعالمين**»(٣).

(١) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٣٨٥، وانظر نحوه من كلام السعدي في تفسير الكريم الرحمن ٥/ ١٠٨٧.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٣٥، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة برقم: ٤٩٠.

(٣) جزء من حديث طويل أخرجه أبو داود برقم: ٤٦٥٩، ك: السنة، وصححه الألباني في=

قال الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي عند الحديث على أقسام النِّعم التي أنعم الله بها على عباده، وأنَّ قِسماً منها أعيانٌ: «فمن الأعيان ـ وهو أجلُّها ـ: رسولُ الله ﷺ الذي منَّ اللهُ ببعثتِه على المؤمنين، بل أنعم به على جميع المخلوقين، قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾»[1].

نعم، لقد كان هذا الرسول الكريم ﷺ رحمةً مهداة للناس جميعاً في كلِّ زمان ومكان، بما أوحاه الله ﷻ إليه من منهج ربَّاني، يكفلُ السعادةَ والاستقرارَ للبشرية كلها في حياتها المادية والروحية، فما أحوج البشرية اليوم إلى هذه الرحمة المهداة تمسكاً بتعاليمه، واهتداء بهديه، واقتفاءً لأثره، وسيراً على منهاجه، وإحياء لسنته؛ لينتشلها مما تعانيه من قلق وحيرةٍ وضياعٍ[2]، بل ما أحوجَ البهائم العجماوات إلى هذه الرحمة، وقد أُلهمت أنَّه ﷺ رحمةٌ مهداةٌ، وأنه نبيُّ الرحمة، يوم أن اشتكت إليه ظلمَ أرْبابها وتجويعهم لها[3].

=السلسلة الصحيحة برقم: ١٧٥٨، وصحيح الجامع الصغير برقم: ٢٧٢٨.

(١) مجالس في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ ص: ٣٢٤.

(٢) وانظر: شخصية الرسول ﷺ: ص ١٣٩ـ ١٤٠.

(٣) انظر: وميض من الحرم، المجموعة الثانية: ص ٧٦ـ ٩٧.



***

المطلب الثاني: بيان أن أمته أمة مرحومة.

وكما كان مبعثُه ﷺ رحمةً للعالمين جميعاً، وكان هو أرْحَمَ الخلقِ على الإطلاق، فإنَّ أمَّته أيضاً كانت أمةً مرحومةً، كما قال ﷺ: «**أمتي أمةٌ مرحومةٌ، ليسَ عليها عَذابٌ في الآخرة، عذابُها في الدنيا: الفِتَنُ، والزَّلَازلُ، والقتلُ**»[1].

فكان ذلك من تمامِ نعمِ الله على هذه الأمة، وكمال مِنَّتِه عليها، قال الحافظ ابن ناصر الدين في أثناء كلامِه على تفسير قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ**﴾ [آل عمران: ١٦٤]: «وقد حصل للمؤمنين المُشارِ إليهم في هذه الآية بالمِنَّةِ والنعمةِ الثناءُ العظيمُ من الله الكريم... بقوله تعالى: ﴿**مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ**﴾...الآية [الفتح: ٢٩]. ووصفت هذه الأمة بأنها مرحومة...»[2].

---

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٤٢٧٨، ك: الفتن، وأحمد في المسند ٣٢/ ٤٢٧، ٤٥٣، برقم: ١٩٦٥٨، ١٩٦٧٨، والحاكم في المستدرك ٤/ ٤٤٤، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، وحسَّن الحافظ ابن حجر إسناده. (بذل الماعون: ص ٢١٣). وصححه الشيخ الألباني. (السلسلة الصحيحة برقم: ٩٥٩).

(٢) مجالسه ص: ٤٥٦.

وقوله ﷺ: «**لا عذابَ عليها في الآخرة**»، قال الحافظ ابن حجر: «وهو محمولٌ على معظم الأمة المحمدية؛ لثبوت أحاديث الشفاعة أنَّ قوماً يُعذَّبون ثم يخرجون من النار،ويدخلون الجنة»[1].

* * *

(١) بذل الماعون ص: ٢١٤.



المبحث الرابع
خصائص رحمته ﷺ وسماتها

إن المُتتبِّعَ لسيرة النبي ﷺ ومواقفِه في باب الرحمة والرأفة، وأقوالِه ووصاياه لأمته وأتباعه في ذلك، يستطيع أن يستخلص أهمَّ السمات والخصائصِ التي تُميِّز رحمة النبي ﷺ، فمن ذلك:

١ـ أنها رحمةٌ ربَّانيَّةٌ: فقد سبق بيان ربَّانية صفة الرحمة، وأن النبيَّ محمداً ﷺ قد تخلَّق بهذه الصفة الربَّانية، حتى زكَّاه ربه وأثنى عليه بقوله: ﴿ **بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التوبة: ١٢٨]. قال بعضهم: «من فضله ﵇ أن الله تعالى أعطاه اسمين من أسمائه»[١].

٢ـ أنها رحمةٌ عامَّةٌ: وقد سبق أيضاً بيان أن بعثته رحمةٌ للعالمين: إنسهم وجنهم، مؤمنهم وكافرهم، عربهم وعجمهم، ذكرهم وأنثاهم، حتى تتجاوز الرحمة إلى الحيوان الأعجم، فلا عجبَ أن تكتسبَ رحمتُه ﷺ عمُومَها وعالميتها من عموم رسالته وعالميتها، وهذه الرحمة العامة هي التي عناها النبي ﷺ حين قال: «**ليس برحمة أحدكم صاحبَه، يرحمُ الناسَ كافَّةً**»[٢]، إجابةً عن قول أصحابه

(١) الشفا ١/ ٨١، وانظر: نبي الرحمة: ص ٥٥ـ٥٦.

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده ٧/ ٢٥٠، برقم: ٤٢٥٨، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة=

رضي الله عنهم: كلُّنا يَرْحَمُ.

٣ـ أنها رحمةٌ أخلاقيةٌ: سبق أن بينا أن الرحمةَ كانت خلقاً سامياً فُطِرَ عليه النبي ﷺ، وكان هذا الخُلُق الرفيع جزءاً من شخصيته أدَّبَه به ربُّه سبحانه، وأثنى عليه به، وكذا كلُّ من رآه وخالَطَه، فلم تكن الرحمةُ في شخصيته ﷺ متكَلَّفَةً مصطنعةً، أو لأجل مآربَ دنيويةٍ، أو أمجادٍ شخصيةٍ، وكذا كانت أخلاقُه كلها ﷺ.

٤ـ أنها رحمةٌ شاملةٌ لجميع فئاتِ المجتمعِ: وكما كانت رحمته ﷺ عامَّةً للعالمين جميعاً، فإنها كانت شاملةً لكلِّ طبقات المجتمع وفئاته، فهي رحمةٌ للكبير والصغير، والذكر والأنثى، والغني والفقير، والعدو والصديق، والحر والعبد، والمسلم والكافر، والحي والميت.

٥ـ أنها رحمةٌ عمليَّةٌ فعليَّةٌ: فلم تكن الرحمةُ النبوية مجردَ أقوالٍ تُرَدَّدُ، أو وصايا تُلقَّن، بل كانت ـ كسائر أخلاقه ﷺ ـ واقعاً عمليّاً يُمارس، وخُلُقاً حميداً يطبَّق، إلى جانب كونها مبادئ في النفوس تُغْرس، وإن مواقف النبي ﷺ المدوَّنة في سيرته العطرة لتؤكد هذه الحقيقة وتؤيدها كما سيأتي ذكر نماذج حيَّة لذلك في ثنايا بحثنا هذا[1].

=الصحيحة برقم: ١٦٧.

(١) وانظر: نبي الرحمة ص: ٦٤.



٦ـ **أنها رحمةُ القِيَمِ الساميةِ والمبادئِ العادلةِ**: قامت رحمة النبي ﷺ على مراعاة القيم الأخلاقية الرفيعة، والمبادئ الإنسانية العادلة؛ فهي رحمةٌ تراعي الضَّعَفَة من النساء والأطفال والأيتام، فتوصي بهم الرجالَ والكبارَ والأولياء، وهي رحمة تراعي العمال والموالي والخدم، فتحفظ حقوقهم عند أربابهم، وتوصيهم بالإحسان إليهم وعدم ظلمهم، وهي رحمةٌ تقوم على مراعاة حقِّ الكبار والآباءِ، فتوصي الصغار والأبناء باحترامهم وتوقيرهم وتقديرهم، وهي رحمة تقوم على الوفاء وحفظ العهد وعدم الغدر، فتوصي المسلمين بالمُعاهَدين والمُسْتَأمنين خيراً، وتحفظ لهم أمْنَهم وحقوقهم، وتصون لهم دماءهم وأعراضهم، وهي أيضاً رحمةٌ للأعداء أثناء الحرب معهم؛ فلا غَدْرَ ولا تمثيلَ ولا تنكيل، ولا قتلَ لامرأةٍ ولا لشيخٍ أو صغير، إنها رحمةٌ عادلةٌ في غير ذِلَّة، ساميةٌ راقيةٌ في قوةٍ وعِزَّةٍ، إنها رحمةُ صاحبِ الخُلُقِ الرفيعِ العظيمِ محمد ﷺ.

وسوف تتضح من خلال المباحث الآتية -إن شاء الله- بصورة جلية، وبأمثلة عملية هذه السمات، وتلك الخصائص لرحمته ﷺ، من خلال أقواله ومواقفه وسيرته ﷺ.

* * *

الفصل الثاني
معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالمجتمع

وفيه ثمانية مباحث:

- **المبحث الأول: معالمُ الرحمة في علاقته ﷺ بأُمتِه على وجه الإجمال.**
- **المبحث الثاني: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بأصحابه وإخوانه.**
- **المبحث الثالث: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بأهل بيته وأقاربه وأرحامه.**
- **المبحث الرابع: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بضعفة المجتمع من النساء والبنات والأطفال والأيتام والخدم والفقراء وغيرهم.**
- **المبحث الخامس: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالمرضى والميتين والمسنين.**
- **المبحث السادس: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالجاهلين والعصاة والمذنبين.**
- **المبحث السابع: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالمسافرين والغرباء.**
- **المبحث الثامن: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالأعداء والمخالفين.**

ابيض

المبحث الأول

معالمُ الرحمة في علاقته ﷺ بأُمته على وجه الإجمال

والمقصود هنا بيان رحمته بأتباعه الذين آمنوا به، واستجابوا له واتبعوه؛ فقد كان ﷺ في غاية الشفقة والرحمة بأمته، والحرص على جلب الخير لهم، ودفع الشرِّ عنهم، كما قال الله ﷻ: ﴿ **بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وكما قال جل وعلا: ﴿ **وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ** ﴾ [التوبة: ٦١].

ومن أهم معالم هذه الرحمة بأمته ﷺ إجمالاً.

١ـ دعاؤه ﷺ لأمته، وبكاؤه شَفقَةً عليها.

فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: «**أن النبي ﷺ تلا قول الله ﷻ في إبراهيم: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ﴾...الآية** [إبراهيم: ٣٦]، **وقال عيسى، عليه السلام: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾** [المائدة: ١١٨]، **فرفع يديه وقال: «اللهمَّ! أُمَّتي أُمَّتي» وبكى... فقال الله: يا جبريل! اذْهَب إلى محمدٍ فقل: إنَّا سَنُرْضيكَ في أمَّتِك ولا نَسُوءُك**»[1].

قال الإمام النوويُّ رحمه الله: «هذا الحديثُ مشتملٌ على أنـواعٍ مـن الفوائـد،

---

(١) أخرجه مسلم ١/ ١٩١، برقم: ٢٠٢، ك: الإيمان.

منها: بيان كمال شفقة النبي ﷺ على أمته، واعتنائه بمصالحهم، واهتمامه بأمرهم...»[1].

ولما كَسَفت الشمسُ على عهده ﷺ قام يصلي ويدعو ربَّه ويبكي، ويقول: «**ربِّ! ألم تعدني ألا تعذبهم وأنا فيهم، ألم تعدني ألا تعذبهم وهم يستغفرون؟**»[2].

٢ـ اختباؤه دعوتَه المستجابة شفاعةً لأمته يوم القيامة.

فقد قال رسول الله ﷺ: «**لكل نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ، فتعجَّل كلُّ نبيٍّ دعوته، وإني اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي يومَ القيامةِ، فهي نائلةٌ -إن شاء الله- من ماتَ من أمتي لا يشركُ بالله شيئاً**»[3].

قال ابن بطال: «في هذا الحديث بيان فضل نبينا ﷺ على سائر الأنبياء؛ حيث آثَر أمَّتَه على نفسه وأهل بيته بدعوته المجابة، ولم يجعلها أيضاً دعاءً عليهم

(١) شرح صحيح مسلم ٢/ ٨٠. وانظر: تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥ عند تفسير الآية (١١٨) من سورة المائدة.

(٢) أخرجه أبو داود ١/ ٧٠٤، برقم: ١١٩٤ ـ واللفظ له ـ، والنسائي ٣/ ١٣٧ ـ ١٣٨، كلاهما في الصلاة. وصححه الشيخ الألباني. (صحيح سنن أبي داود برقم: ١٠٥٥).

(٣) أخرجه البخاري ١١/ ٩٦ برقم: ٦٣٠٤، ك: الدعوات، ومسلم ـ واللفظ له ـ ١/ ١٨٩، برقم: ١٩٩، ك: الإيمان.

بالهلاك كما وقع لغيره مما تقدَّم»[١].

وقال ابن الجوزي: «هذا... من كثرة كرمه؛ لأنه آثر أمته على نفسه، ومن صحة نظره؛ لأنه جعلها للمُذنبين من أمته لكونهم أحوجَ إليها من الطائعين»[٢].

٣ـ سؤاله ﷺ ربه ألا يُهلك أمته بقحط عامٍّ، وألاَّ يسلِّط عليها عدُوّاً من غيرها.

ففي «صحيح مسلم»[٣] قوله ﷺ: «**إنَّ الله زَوَى لي الأرضَ... وإني سألتُ ربي لأمتي أن لا يُهلكَها بسَنَةٍ عامَّةٍ، وأن لا يسلطَ عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضَتهم**»[٤].

وإن ربي قال: يا محمد! إني إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يُردُّ، وإني أعطيتكَ لأمتك أن لا أهلكهم بسَنَةٍ عامَّةٍ، وأن لا أسلِّط عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم يستبيحُ بيضتهم، ولو اجتمع عليهم مَنْ بأقطارها، حتى يكون بعضُهم يهلك بعضاً، ويَسْبي بعضهم بعضاً».

---

(١) فتح الباري ١١/ ٩٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ٤/ ٢٢١٥، برقم: ٢٨٨٩، ك: الفتن وأشراط الساعة.

(٤) أي: جماعتهم وأصلهم، والبيضة أيضاً: العِزُّ والمُلْك. (شرح النووي على مسلم ٩/ ٢٤٢).



ومعنى: «**ألا أهلكهم بسنة عامَّةٍ**» أي: لا أهلكهم بقحطٍ يعمُّهم، بل إن وقع قَحْطٌ فيكون في ناحيةٍ يسيرةٍ بالنسبة إلى باقي بلاد الإسلام[1].

٤ـ اشتراطه ﷺ على ربه أنَّ من سبَّه أو دعا عليه أن يجعلها له زكاةً ورحمةً.

فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها: «**أَوَ مَا علمتِ ما شارطتُ عليه ربي؟ قلت: اللهم! إنما أنا بَشَرٌ، فأيُّ المسلمين لعَنْتُه أو سبَبْتُه فاجعله له زكاةً وأجراً**»[2].

قال الإمام النووي: «هذه الأحاديث مُبَيِّنةٌ ما كان عليه ﷺ من الشفقة على أمته، والاعتناء بمصالحهم، والاحتياط لهم، والرغبة في كل ما ينفعهم»[3].

٥ـ حِرصُه ﷺ على حَقْنِ دماءِ أمته، وحفظ أموالها وأعراضها، ونبذ الفرقة والخلاف بين أبنائها.

ويتضح هذا الحرص منه ﷺ في خطبة حجة الوداع؛ إذ تضمنت بنوداً ومواثيق تبين للأمة حرمةَ الاعتداء على الدماء والأموال والأعراض، وتحذرهم

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٩/ ٢٤٢، وانظر: عظيم قدره ﷺ ص: ١٢٣.

(٢) أخرجه مسلم ٤/ ٢٠٠٧ برقم: ٢٦٠٠، ك: البر والصلة.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٨/ ٤٠٠.

من الفرقة والتدابر والخلاف، فكان من بنود هذه الخطبة: «**إنَّ دِمَاءَكم وأموالَكم حرامٌ عليكم، كحُرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كلُّ شيءٍ من أَمْرِ الجاهليةِ موضوعٌ تحت قَدَميَّ، ودماءُ الجاهلية موضوعة... وربا الجاهلية موضوعٌ**»[1].

وفي رواية: «**فلا ترجعوا بعدي كفاراً يَضْرِبُ بعضُكُم رِقابَ بعضٍ**»[2].

وهذه التوصيات النبوية في تعظيم شأن الدماء والأموال والأعراض، جعلت المُنصفين من مفكري الغرب يشهدون بأنها تَشِعُّ رحمةً وشفقةً لا يمكن أن يصدرا إلا عن مثل قلب محمد ﷺ الرؤوف الرحيم.

٦ـ حرصُه ﷺ على دلالة أمتِه على كلِّ ما فيه الخيرُ والأجرُ والنجاة، وتحذيرهم من كل ما فيه الشرُّ والخسران والهلاك.

قال الله ﷻ مُبَيِّناً عظيم مِنَّتِه على الأمة ببعث محمد ﷺ هادياً ومعلماً وبشيراً: ﴿ **لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ** ﴾

(١) صحيح مسلم ٢/ ٨٨٩ ـ ٨٩٠ برقم: ١٢١٨، ضمن حديث جابر الطويل في بيان حجة النبي ﷺ.

(٢) صحيح البخاري ٣/ ٥٧٣ ـ ٥٧٤، برقم: ١٧٤١، ك: الحج.



[آل عمران: ١٦٤].

قال الحافظ ابن ناصر الدين في «مجالسه»[١] التي عقدها لتفسير هـذه الآيـة الكريمة: «فبُعثَ فيهم هذا الرسول ﷺ فتلا عليهم الآيات، وزكَّاهم وعلَّمهم الكتاب والحكمة... وكان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، ومن رأفته بهم ورحمته إيـاهم: ما أمرهم به ونهاهم عنه تحصيلاً لهم ما لا يُعَبَّر عنه من الأجور، وتحصيناً لهم من العذاب وأنواع الشرور».

٧ـ تيسيره ﷺ على أمته وتخفيفه عنها، ورفعه الحرجَ والمشقة ما استطاع.

ومن أبرز صور هذا التيسير ما ورد عنه ﷺ من الرُّخَص الشرعية في كثير من الأحكام والعبادات، بل إنَّه رَغَّبَ في الحرص على استعمال هذه الرخص وعدم الزهد فيها، فقال: «**إن الله يحبُّ أن تُؤتى رُخَصُه كما يكره أن تُؤتى معصيتُه**»[٢].

وفيما يتعلق برفعِ الحرج والمشقة عن الأمة نجد قول الله،ﻷ: ﴿ **عَزِيزٌ عَلَيْهِ**

(١) ص ٤٣٧. وانظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٤١، تيسير الكريم الرحمن ٣/ ٦٩٦، سيرة الرسول ﷺ، لدروزة ص ٥٣.

(٢) أخرجه أحمد ١٠/ ١٠٧، برقم: ٥٨٦٦، وابن حبان ـ كما في الإحسان ١/ ٢٨٤ برقم: ٣٥٥ ـ ولفظ ابن حبان: «كما يحب أن تؤتى عزائمه»، وصححه الألباني في إرواء الغليل برقم: ٥٦٤.

مَا عَنِتُّمْ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، أي: يعِزُّ عليه الشيءَ الذي يُعْنِتُ أمته ويشق عليها، بل إنه المبعوث بالحنيفية السمحة ﷺ(١).

وسيأتي في أثناء هذا البحث ذكر نماذج من هذه الرُّخص والتيسيرات، ورفع الحرج والمشقات.

* * *

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٢٤١، تيسير الكريم الرحمن ٣/ ٦٩٦.



المبحث الثاني

معالم الرحمة في علاقته ﷺ بأصحابه وإخوانه

لعلَّ أسعدَ الناس برحمته وشفقته ﷺ هم أصحابه الكرام، وإخوانه الذين هم خير الأنام؛ ذلك أن جِماعَ خصاله الشريفة، وأخلاقه المنيفة ـ وعلى رأسها الرحمة ـ قد تجلَّت واقعاً عمَليّاً في عِشْرتِه ﷺ مع أصحابه، ومعاملته لهم؛ فهم المُخالطون له دوماً، السُّعداءُ بمرافقته حَضَراً وسفراً.

ولقد انعكست رحمته ﷺ بأصحابه على أخلاقهم: حُبّاً له ﷺ، والتفافاً حوله، وتفانياً في طاعته وتضحيةً بالنفس والمال في سبيل نصرته. كما امتثلوا الرحمةَ النبويةَ خُلُقاً لهم في التعامل مع غيرهم؛ فكانوا متراحمين متوادّين، كما وصفهم الله ﷻ بقوله: ﴿ **رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ** ﴾ [الفتح: ٢٩].

ومن أبرز معالم الرحمة في علاقته ﷺ بأصحابه وإخوانه:

١ـ لينُ جانبِه ﷺ وسماحته وحسن عشرته مع أصحابه.

فقد كان ﷺ كما وصفه ربه ﷻ بقوله: ﴿ **فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فبرحمة الله الرحيم لنبيِّه منَّ عليه سبحانه: بلين الجانب، ورِقَّة القلبِ، وخفضِ الجناحِ لأصحابه،

فأحبوه وامتثلوا أمره[1]، «وما كانت الأمةُ لتجتمع على الرسول الكريم ﷺ لو كان في طبعه خشونة، وفي خلقه غلظة، وفي شمائله جفاء»[2].

٢ـ بشاشته ﷺ مع أصحابه ولقاؤهم بالبِشر وطَلَاقةِ الوجهِ.

ولقد رغب النبي ﷺ في هذا الخلق العظيم، فقال: «**تبسُّمك في وجه أخيك صدقة**»[3].

وقال ﷺ: «**كل معروف صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجهٍ طَلْقٍ**»[4].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٤٨، تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٥٥.

(٢) شخصية الرسول ﷺ للهاشمي: ص ٤٠.

(٣) أخرجه الترمذي ٤/ ٣٣٩ـ ٣٤٠، برقم: ١٩٥٦، في البر والصلة، وابن حبان في صحيحه ـ كما في الإحسان برقم: ٤٧٤، ٥٣٠ـ، وحسنه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم: ٢٩٠٨، والسلسلة الصحيحة برقم: ٥٧٢.
ومعنى الحديث: إظهارك البشر والبشاشة لأخيك إذا لقيته تؤجر عليه كما تؤجر على الصدقة. (فيض القدير ٣/ ٢٢٦).

(٤) أخرجه الترمذي برقم: ١٩٧٠، في البر والصلة، وأحمد في المسند ٢٣/ ٥٧، برقم: ١٤٧٠٩، وقال الترمذي: حسن صحيح، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم: ٤٥٥٧.
والمعنى: تلقاه منبسط الوجه متهلله. (تحفة الأحوذي ٥/ ٣٨٣).

وقد تمثَّل النبي ﷺ هذا الخلق العظيم في عشرته مع أصحابه وإخوانه: فعن عبد الله بن الحارث رضي الله عنه قال: «**ما رأيت أحداً أكثرَ تبسُّماً من رسول الله ﷺ**»، وبوَّب عليه الترمذي بقوله: «**باب في بشاشة النبي ﷺ**»[1].

وعن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: «**ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمتُ، ولا رآني إلا ضحك**». وفي رواية: «**إلا تبسَّم**»[2].

قال النووي: «وفعل ذلك إكراماً ولُطفاً وبشاشةً»[3].

٣ـ إكرامُه ﷺ أصحابه، وإنزالُهم منازلهم، ومعرفةُ الفضلِ لذوي الفضل منهم.

فقد فضَّل ﷺ السابقين وأهلَ الاختصاص به على من لم ينل منازلهم، وفضَّل أهلَ بدرٍ على غيرهم ممن لم يشهدها[4].

وكان ﷺ يُنزل كلَّ واحدٍ منهم منزلته اللائقة به؛ كما أكرمَ جريراً البجلي، رضي الله عنه ـ وكان سيِّداً مُطاعاً في قومه كبيرَ القدرِ ـ لما جاءه مُسلِماً، وبسَطَ له رِداءَه،

---

(١) جامع الترمذي ٥/ ٦٠١، برقم: ٣٦٤١، ك: المناقب، وحسنه.

(٢) أخرجه البخاري ٧/ ١٣١، برقم: ٣٨٢٢، ك: مناقب الأنصار، ومسلم ٤/ ١٩٢٥، برقم: ٢٤٧٥، ك: فضائل الصحابة.

(٣) شرح صحيح مسلم ٨/ ٢٧٤.

(٤) انظر: الاستيعاب، المقدمة ١/ ٩، ومقدمة معرفة الصحابة لأبي نعيم ١/ ٦ـ١٨.

وقال: «**إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرموه**»[1].

٤ـ مخالطتُه ﷺ لأصحابه، وبروزُه لهم، وتفقُّدُ غائبهم، وزيارة مريضهم، وقضاءُ حوائجهم.

فقد كان ﷺ قريباً من أصحابه، بارزاً لهم، غير محتجب أو منعزل عنهم، وفي هذا يقول أنس رضي الله عنه: «**إن كان النبي ﷺ ليُخالطنا...**»[2].

وقد كان ﷺ يتفقد غائبهم ويسأل عنه؛ فقد كانت امرأةٌ سوداء تقمُّ المسجد ـ أو شاباً ـ فَفَقَدَها رسول الله ﷺ فسأل عنها ـ أو عنه ـ فقالوا: مات، فقال ﷺ: «**أفلا كنتم آذنتموني؟... دلُّوني على قبره**»، فدَلُّوه فصلى عليه، ثم قال: «**إن هذه القبور مملوءةٌ ظلمةً على أهلها، وإن الله ﷻ يُنوِّرها لهم بصلاتي عليهم**»[3].

قال الإمام النووي: «فيه بيانُ ما كان عليه النبي ﷺ من التواضع والرِّفقِ بأمته، وتفقد أحوالهم، والقيام بحقوقهم...»[4].

---

(١) السلسلة الصحيحة ٣/ ٢٠٤، برقم: ١٢٠٥.

(٢) أخرجه البخاري ١٠/ ٥٢٦، ٥٨٢، برقم: ٦١٢٩، ٦٢٠٣، ك: الأدب، ومسلم ٣/ ١٦٩٢، برقم: ٢١٥٠، في الآداب، واللفظ للبخاري.

(٣) أخرجه البخاري ٣/ ٢٠٤، برقم: ١٣٣٧، ومسلم ٢/ ٦٥٩، برقم: ٩٥٦، كلاهما في ك: الجنائز، واللفظ لمسلم.

(٤) شرح صحيح مسلم ٤/ ٣٠.

«وزار ﷺ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عام حجة الوداع من وجع اشتدَّ به»[1].

«وزار سعد بن عبادة رضي الله عنه من شكوى له»[2].

وسيأتي ذكر شيء من سعيه ﷺ في قضاء حوائج أصحابه والوصية بذلك.

قال الإمام النووي رحمه الله عند شرحه جملة من الأحاديث في قرب النبي ﷺ من الناس، وقضاء حوائجهم: «في هذه الأحاديث: بيان بروزه ﷺ للناس، وقربه منهم؛ ليصل أهل الحقوق إلى حقوقهم، ويرشد مسترشدهم، ليشاهدوا أفعاله وحركاته، فيُقتدى بها، وهكذا ينبغي لولاة الأمور. وفيها: صبره ﷺ على المشقة في نفسه لمصلحة المسلمين...»[3].

٥ـ ثقته ﷺ بأصحابِه، والركونُ إليهم، والتصديقُ لهم، وحسنُ الظنِّ بهم.

ومن ذلك: أن المنافقين ـ لعنهم الله ـ آذوا النبي ﷺ، فقالوا: ﴿ **هُوَ أُذُنٌ** ﴾ أي: يستمع لكلِّ أحدٍ، ولا يُميز بين صادق وكاذبٍ، فردَّ الله عز وجل عليهم فقال:

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٦٤، برقم: ١٢٩٥، ك: الجنائز.

(٢) أخرجه البخاري ٣/ ١٧٥، برقم: ١٣٠٤، ك: الجنائز، ومسلم ٢/ ٦٣٦، برقم: ٩٢٤.

(٣) شرح صحيح مسلم ٨/ ٩١، ك: الفضائل، ب: قرب النبي ﷺ من الناس.

﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ﴾ [التوبة: ٦١][(١)].

فبيَّن سبحانه أنه ﷺ **«سريع الاستماع والإجابة لكلِّ شيء أو قولٍ في خير للمؤمنين...، قويُّ الركونِ إلى المؤمنين المخلصين، والاعتماد عليهم أيضاً، قـويُّ الاعتقاد بحسن نيَّاتِهم؛ وهو بهذه الصفاتِ رحمةٌ لهم»**[(٢)].

٦ـ حياؤُه ﷺ من أصحابه، وصبرُه على ما قد يلقى منهم من أذى، تجنُّبـاً لجرح مشاعرهم.

ومن المواقف المشهورة للنبي ﷺ مع أصحابه في ذلك: ما حصـلَ للنبـي ﷺ حين تزوج بأمِّ المؤمنين زينب بنت جحش، رضي الله عنها؛ إذ دعا أصحابه إلى طعام بهذه المناسبة، فأبطأ جماعةٌ منهم بعدما فرغوا مـن الطعـام، وأطـالوا الجلـوس في بيتِ النبيِّ ﷺ، حتى شقوا بذلك عليه، وحبسوه عن شؤون بيتـه وأشـغاله[(٣)]، كما في رواية لابن أبي حاتم: «فشقوا عـلى رسـول الله ﷺ، وكـان أشـدَّ النـاس

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٧٠، تيسير الكريم الرحمن ٣/ ٦٦٣.

(٢) سيرة الرسول ﷺ، لدروزة ص ٥٣.

(٣) انظر القصة في: صحيح البخاري ٨/ ٥٢٧، برقم: ٤٧٩٢ ـ ٤٧٩٤، ك: التفسير، وصحيح مسلم ٢/ ١٤٠٦، برقم: ١٤٢٨، ك: النكاح.



حياءً»[1].

فأنزل الله ﷻ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ ﴾ ... إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. فأدَّب سبحانه المؤمنين بأدبين: ألا يدخلوا بيوت النبي ﷺ إلا بإذنه، وإذا دخلوا لا يجلسوا إلا بقدر الحاجة حتى لا يؤذوا النبي ﷺ بطول جلوسهم، ويمنعه الحياءُ من طلب الخروج منهم[2].

«وقد تضمنت الآية تنويهاً بخلق من أخلاق النبي ﷺ، وهو: الحياء، والصبر على ما يؤذي نفسه من أصحابه، وتجنبه كسر قلوبهم، وجرح عواطفهم»[3]. وذلك كله من كمال رحمته، وعظيم شفقته ﷺ بأصحابه.

٧ـ العفو عن إساءتهم، والتجاوزُ عن أخطائِهم وزلّاتهم، وتركُ العتابِ واللومِ لهم.

وهذا جانبٌ آخر من جوانبِ الرِّفق والرحمةِ في تعامله ﷺ مع أصحابه؛

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٦/ ٤٥٢.

(٢) وانظر في تفسير هذه الآيات: تفسير القرآن العظيم ٦/ ٤٥٠ ـ ٤٥٤، تيسير الكريم الرحمن ٦/ ١٣٩٧ـ١٣٩٨.

(٣) سيرة الرسول ﷺ، لدروزة ص ٥٤.

امتثالاً لأمر ربه ﷻ حين قال له ـ بعد التنويه بلينه ورقته وعدم غلظته وفظاظته ـ: ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فأمره سبحانه بالعفو عمَّا صدر عنهم من تقصير في حقِّه، وعدمِ مقابلةِ إساءتهم بالإساءة، بل بالعفو عنهم والاستغفار لهم(١).

وقد تعدَّدت المواقف التي بدا فيها عفوُه وصفحه ﷺ عن أصحابه، وتركه اللوم والمعاتبة لهم، خاصة مع الأعراب الجفاةِ منهم، فمن ذلك: «**أن أعرابياً جبذه مرةً بردائه جبذةً أثَّرت في عنقه الشريف ﷺ، وقال له: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك. فما زاد ﷺ على أن التفت إليه وضحك، ثم أمر له بعطاءٍ**»(٢).

٨ـ أنه ﷺ كان لأصحابه بمنزلةِ الوالد يعلمهم ما لا بدَّ لهم منه.

وهذا أيضاً من تمام شفقته عليهم، وحرصه على ما ينفعهم، فقد جعل نفسه بمنزلة الوالدِ المعلِّمِ لولده، الدالِّ له على ما ينفعه، المُحذِّر له مما يضُرُّه، فقد قال ﷺ: «**إنما أنا لكم بمنزلة الوالدِ أعلِّمكم**»(٣).

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٥٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢/ ٧٣٠، برقم: ١٠٥٧، ك: الزكاة. وانظر: شرح مسلم للإمام النووي ٤/ ١٥٩.

(٣) أخرجه أبو داود ١/ ١٨ برقم: ٨، والنسائي ١/ ٣٨، وابن ماجه ١/ ١١٤، برقم: ٣١٣،=

قال المناوي: «بمنزلة الوالد: في الشفقةِ والحنوِّ... وفي تعليمِ ما لابد منه»[1].

٩ـ إرشادُ أصحابه إلى ما يدفع الإثم عنهم، وصيانة قلوبهم وجوارحهم عن الوقوع فيما يضرهم.

ويتضح هذا الخلق النبوي جليّاً في قصة زيارة أم المؤمنين صفيَّة له ﷺ في معتكفه، فلما أرادت أن تذهب ذهب معها ليشيِّعها إكراماً لها، فمرَّ به ﷺ رجلان من الأنصار، فلما رأياه أسرعا، فقال لهما النبي ﷺ: «**على رِسْلِكُما، إنما هي صفية بنت حُيَيٍّ**»، فقال الرجلان: سبحان الله يا رسول الله! وكبر عليهما، فقال ﷺ: «**إن الشيطانَ يبلغُ من ابنِ آدمَ مبلغَ الدَّم، وإني خشيتُ أن يَقْذِفَ في قلوبكما شيئاً**»، وفي رواية: «**شَرّاً**»[2]، وفي رواية: «**يجري من ابن آدم مجرى الدم**»[3].

=ثلاثتهم في الطهارة، وأحمد في المسند ١٢/ ٣٢٦، برقم: ٧٣٦٨، ورمز له السيوطي بالصحة في الجامع الصغير ٢/ ٥٧٠، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم: ٢٣٤٦.

(١) فيض القدير ٢/ ٥٧٠، وانظر: عظيم قدره ﷺ، لخليل خاطر ص ٤٥.

(٢) أخرجه البخاري ٤/ ٢٧٨ برقم: ٢٠٣٥، ك: الاعتكاف، ومسلم ٤/ ١٧١٢ـ برقم: ٢١٧٥، ك: السلام.

(٣) صحيح البخاري برقم: ٢٠٣٩.

فلم ينسبهما النبي ﷺ إلى سوء الظن به؛ لمعرفته بصدق إيمانهما، وإنما خشي عليهما أن يوسوس لهما الشيطان بذلك، فيفضي بهما إلى الهلاك؛ إذ لو وقع في قلوبهما رِيبةٌ في أمره ﷺ لكفرا بذلك، فبادَر بإعلامهما شفقةً عليهما[1].

قال النووي رحمه الله في ذكر فوائد هذا الحديث: «بيان كمال شفقته على أمته، ومراعاته لمصالحهم وصيانة قلوبهم وجوارحهم، وكان بالمؤمنين رحيماً»[2].

* * *

(١) انظر: شرح السنة للبغوي ١٤/ ٤٠٥-٤٠٦، فتح الباري ٤/ ٢٨٠.

(٢) شرح صحيح مسلم ٧/ ٤١٢.



المبحث الثالث

معالم الرحمة في علاقته ﷺ بأهل بيته وأقاربه وأرحامه

وهذا جانبٌ آخر من الجوانب التي تتضح فيها معالم رحمته ﷺ، وهو جانب الرحمة بأهله: من زوجاتٍ، وأقاربَ، وأبناء، وغيرهم ممن له بهم رحمٌ موصولةٌ.

ومن خلال المطالب الآتية يمكن أن نستعرض بعضاً من مواقفه ﷺ وأخلاقه التي تبدو فيها رحمته بأهله وأقاربه وأرحامه.

المطلب الأول: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بنسائه وزوجاته.

لقد ضرب رسول الله ﷺ في رحمته بزوجاته ونسائه أروع الأمثلة، وكان قدوةً لأمته في ذلك، ومن صور هذه الرحمة:

١ـ أنه ﷺ كان رفيقاً بزوجاته، حَسَنَ المعاملة لهن، لطيفاً معهنَّ؛ فلم يضرب ﷺ بيده امرأةً له ولا خادماً قطُّ[1]، بل كره ذلك لأمته؛ فقال: «**لا يجلد أحدكم امرأته جَلْدَ العبدِ، ثم يُجَامِعُها في آخر اليوم**»[2].

---

(١) أخرجه مسلم ٤/ ١٨١٤، برقم: ٢٣٢٨، ك: الفضائل.

(٢) أخرجه البخاري ٩/ ٣٠٢، برقم: ٥٢٠٤، ك: النكاح.

وكان ﷺ حسن العشرة معهن، يعينهن ويساعدهن، قالت عائشة رضي الله عنها: «**كان يكون في مَهْنةِ أهلِه، فإذا حضرت الصلاةُ خرج إلى الصلاة**»[1].

٢ـ وكان ﷺ حريصاً على دلالتهن على ما ينفعهن من الأعمال الصالحة ويقربهن من الله والدار الآخرة؛ فقد استيقظ ليلةً فزعاً، فقال: «**سبحان الله! ماذا أنزل الله من الخزائن، وماذا أنزل من الفتن؟ من يوقظ صواحب الحجرات ـ يعني أزواجه ـ لكي يصلين؟ رُبَّ كاسيةٍ في الدنيا، عاريةٍ في الآخرة**»[2].

٣ـ وكان ﷺ يتسامح معهن فيما جُبلن عليه من الطباع البشرية، فيتغاضى عن غيرتهن، ولا يُعنِّف؛ فمن ذلك: «**أنه ﷺ كان عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين مع خادم بقَصعةٍ فيها طعامٌ، فضربت بيدها فكسرتِ القصعة، فضمَّها ﷺ وجعل فيها الطعامَ، وقال: كلوا ـ وفي رواية: غارت أمُّكم، كلوا ـ وحبَسَ ﷺ الرسولَ والقصعةَ حتى فرغوا، فدفع القصعةَ الصحيحةَ وحبس المكسورة**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري ٢/ ١٦٢، برقم: ٦٧٦، ك: الأذان.

(٢) أخرجه البخاري ١٣/ ٢٠، برقم: ٧٠٦٩، ك: الفتن. والمعنى: ربَّ كاسية في الدنيا بالثياب، عارية في الآخرة من الثواب؛ لعدم العمل في الدنيا. انظر: فتح الباري ١٣/ ٢٣.

(٣) صحيح البخاري ٥/ ١٢٤، برقم: ٢٤٨١، ك: المظالم.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وقوله: «غارت أمكم» اعتذار منه ﷺ؛ لئلا يُحمل صنيعها على ما يُذَمُّ، بل يجري على عادة الضرائر من الغيرة»[1]؛ لأن عقلَ المرأة وقتَ الغيرة يكون محجوباً بشدَّة الغضب الذي أثارته الغيرة[2].

٤ـ وكان ﷺ يراعي حديثة السنِّ منهن؛ فكانت عائشة رضي الله عنها **«تلعب عنده بالبناتِ، وكان يُسرِّبُ[3] إليها صواحِبها»**[4]. وذلك لطفٌ منه ﷺ بها لحداثةِ سنِّها.

* * *

المطلب الثاني: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بأولاده وأسباطه.

أما علاقته ﷺ بأولاده وأسباطه، فقد كان ﷺ الأسوةَ الحسنةَ للآباء في هذا الباب: شفقة وحُنُوّاً ورحمةً، ومن المواقف التي أُثرت عنه ﷺ في ذلك:

١ـ أنه ﷺ كان يحب ابنته فاطمةَ ويكرمها، ويرحب بها إذا دخلت عليه،

---

(١) فتح الباري ٥/ ١٢٦.

(٢) انظر: فتح الباري ٩/ ٣٢٥.

(٣) أي: يرسلهن إليها.

(٤) أخرجه مسلم ٤/ ١٨٩٠ برقم: ٢٤٤٠، ك: فضائل الصحابة. وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٨/ ٢٢٥.

ويقوم إليها فيجلسها[1]، وكان يغضب لغضبها؛ فلما أراد زوجها عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن يتزوج عليها بابنة أبي جهل، غضب ﷺ ورحم حالها، وخطب فقال: «**إن فاطمة بضعةٌ مني**[2]**، وإني أكره أن يسوءها، والله لا تجتمع بنتُ رسول الله وبنتُ عدو الله عند رجلٍ واحدٍ**»، فترك عليٌّ الخِطبة[3]. وفي رواية: «**فمن أغضبها أغضبني**»[4].

٢ـ وأشفق ﷺ أشدَّ الشفقة لحال ابنته زينب لما أُسر زوجها أبو العاص بن الربيع في بدر، وأرسلت زينب من مكة بمال في فدائه، وبعثت من ضمنه بقلادةٍ كانت خديجةُ أمها أدخلتها بها على زوجها، فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رِقَّةً شديدة، وقال: «**إن رأيتم أن تُطْلِقوا لها أسيرها، وتردُّوا عليها الذي لها، فافعلوا**». قالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه[5].

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ٦٢٧، برقم: ٣٦٢٣، ك: المناقب، ومسلم ٤/ ١٩٠٤، برقم: ٢٤٥٠ـ ٩٨، ك: فضائل الصحابة.

(٢) أي: قطعة مني.

(٣) أخرجه البخاري ٧/ ٨٥، برقم: ٣٧٢٩، ك: فضائل الصحابة.

(٤) صحيح البخاري برقم: ٣٧٦٧.

(٥) البداية والنهاية ٥/ ٢٠٦، الرحيق المختوم: ٣١٨. وانظر: خاتم النبيين، لأبي زهرة ١/ ٢٦٥.



٣ـ وتظهر شفقته الأبوية ﷺ في أجلى صورها في موقفه حين توفي ابنه إبراهيم عليه السلام، فدخل عليه وهو يجود بنفسه، فجعلت عيناهُ تذرفان، وقال: «**إن العينَ تدمَعُ، والقلبَ يحزنُ، ولا نقول إلا ما يَرْضَى رَبُّنا، وإنا لفِراقِك يا إبراهيم لمحزونون**»، فقال عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟! فقال: «**يا ابن عوف إنها رحمة**»[1].

٤ـ ولما احتُضِر ابنُ ابنته زينب، وأرسلت إليه ليأتِينَّها، فرُفِع الصَّبيُّ إلى النبي ﷺ ونفسُه تتقَعْقَعُ[2]**، ففاضت عيناه شفقةً ورحمةً**، فقال سعد بن عبادة: يا رسول الله ما هذا؟! فقال ﷺ: «**هذه رحمةٌ جعلها اللهُ في قلوب عبادِه، وإنما يرحم الله من عباده الرُّحماء**»[3].

قال الحافظ ابن حجر معلقاً على هذا الحديث: «فيه الترغيب في الشفقة على خلق الله، والرحمة لهم، والترهيب من قساوة القلب وجمود العين»[4].

٥ـ وكان ﷺ يحبُّ الحسنَ والحسينَ ابني فاطمة رضي الله عنها **حُبّاً شديداً،**

---

(١) أخرجه البخاري ٣/ ١٧٢، برقم: ١٣٠٣، ك: الجنائز.

(٢) أي: تتحرك يُسمع لها صوت.

(٣) أخرجه البخاري ٣/ ١٥١، برقم: ١٢٨٤، ك: الجنائز.

(٤) فتح الباري ٣/ ١٥٨، وانظر: خاتم النبيين، لأبي زهرة ١/ ٢٦٥.

ويقول: «**هما رَيْحانتايَ**[1] **من الدنيا**»[2]. وكان يحمل الحسنَ على عاتِقِه[3].

وقَبَّل الحسنَ يوماً، فتعجَّب من ذلك الأقرعُ بنُ حابسٍ، وقال: إن لي عشرة من الولدِ ما قبَّلتُ منهم أحداً!! فقال له النبي ﷺ: «**من لا يَرْحمْ لا يُرْحم**»[4]. وفي رواية أن النبي ﷺ قال له منكراً ومتعجِّباً: «**أَوَ أملِكُ لك أن نزعَ الله من قلبك الرحمةَ؟!**»[5].

وبوَّب الإمام البخاري على هذه الأحاديث بقوله: باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته. وكان ﷺ يضع أسامة بن زيد على فخذه والحسن على فخذه الآخر، ثم يقول: «**اللهم ارحمها فإني أرحمهما**»[6].

وكان ﷺ يخطب يوماً، فجاء الحسنُ والحسينُ عليهما قميصان أحمران يمشيان ويَعْثُران، فنزل ﷺ عن المنبر، فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: «... **نظرتُ إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبِرْ حتى قطعت حديثي**

---

(١) لأن الأولاد يشَمُّون ويُقَبَّلون، فكأنهم من جملة الرياحين. فتح الباري ١٠/ ٢٧.

(٢) أخرجه البخاري ٧/ ٩٥، برقم: ٣٧٥٣، ك: فضائل الصحابة.

(٣) صحيح البخاري برقم: ٣٧٤٩.

(٤) صحيح البخاري ١٠/ ٤٢٦، برقم: ٥٩٩٧، ك: الأدب.

(٥) صحيح البخاري برقم: ٥٩٩٨.

(٦) صحيح البخاري ١٠/ ٤٣٤، برقم: ٦٠٠٣، : الأدب.

ورفعتها»[1]. قال ابن القيم رحمه الله معلِّقاً على هذا الحديث: «**وهذا من كمال رحمته ﷺ ولطفه بالصِّغار، وشفقته عليهم**»[2].

٦ـ وكان ﷺ يُصلي وهو حامل أُمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حَمَلها[3].

***

المطلب الثالث: معالم الرحمة في علاقته ﷺ ببقية أقاربه وأرحامه.

ومن المواقف التي تمثَّلت فيها رحمته ﷺ بسائر أقاربه وأرحامه:

١ـ شفقته ورحمته ﷺ بعمته صفية رضي الله عنها، فيخشى عليها من رؤية أخيها حمزة، وقد قُتِلَ ومُثِّلَ به، فيأمر بصرفها[4].

---

(١) أخرجه أبو داود ١/ ٦٦٣، برقم: ١١٠٩، ك: الصلاة، والترمذي ٥/ ٦٥٨، برقم: ٣٧٧٤، في المناقب، وابن ماجه برقم: ٣٦٠٠، وحسنه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم: ٢٩٠٠.

(٢) عدة الصابرين ص ١١٧.

(٣) أخرجه البخاري ١/ ٥٩٠، برقم: ٥١٦، ك: الصلاة، ومسلم ١/ ٣٨٥، برقم: ٥٤٣، ك: المساجد، ومواضع الصلاة.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٣/ ٣٤، برقم: ١٤١٨، وأبو يعلى في مسنده كذلك ٢/ ٤٥، برقم: ٦٨٦، والبيهقي في سننه ٣/ ٤٠١، من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه مطولاً، وصححه=

٢ـ وقد شملت رحمته ﷺ حتى الذين لم يُكتب لهـم الإسـلام مـن أقاربـه وأرحامه؛ فقد تحركت في قلبه عاطفـةُ الأمومـةِ والرحمـةِ لوالدتـه التـي لم تـدرك مبعثه، وأخذته الشفقة على ما فاتها من الإسلام، فزار قبرهـا يومـاً، فبكـى ﷺ وأبكى من حوله، فقال: «**استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واسـتأذنته في أن أزورَ قبرها فأذن لي...**»[١]. قال القاضي عياض: «بكاؤه ﷺ على مـا فاتهـا من إدراك أيامه، والإيمان به»[٢].

وقد بيَّن ﷺ أنَّ الرِّقَّةَ والشفقة والرحمة لأمِّه هي التي حركته للبكاء حين زار قبرها، ولم يؤذن له في الاسـتغفار لهـا، فيقـول: «... **فلـم يـأذن لي، فـدمَعَتْ عينايَ رحمةً لها من النار**»[٣]. وفي رواية أخرى: «**فأخذني ما يأخذ الولَدَ للوالدةِ**»[٤]، وفي رواية: «**فأدركتني رقَّتُها فبكيتُ**»[٥].

=الشيخ الألباني في إرواء الغليل ٣/ ١٦٥.

(١) أخرجه مسلم ٢/ ٦٧١، برقم: ٩٧٦ـ١٠٨، ك: الجنائز.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ٤/ ٥٣.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٣٨/ ١١١، برقم: ٢٣٠٠٣.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ـ كما في تفسير ابن كثير ٤/ ٢٢٢ ـ.

(٥) دلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٨٩. قال ابن حجر عـن هـذه الروايـات: «فهـذه طـرق يعضـد بعضها بعضاً». (فتح الباري ٨/ ٥٠٨).



المبحث الرابع

معالم الرحمة في علاقته ﷺ بضَعَفَةِ المجتمع

من النساء، والبنات، والأطفال، والأيتام، والخَدَم، والفقراء، وغيرهم

لقد نالَ ضعفَةُ المجتمع حظا وافراً من الرحمة النبوية، فأوصى بالإحسان إليهم ورعايتهم، وحذَّر من ظلمهم، وتضييع حقوقهم، كما كان مثالاً حيّاً في رحمتهم والعطف عليهم.

وإنما كان الضعفة محلَّ العطف والرحمة؛ لحاجتهم، وعجزهم، وانكسارهم. ولعلنا نستجلي بعضاً من جوانب الرحمة والشفقة النبوية مع هؤلاء الضعفة من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: معالمُ الرحمةِ في علاقته ﷺ بالنساء.

تقدم ذكر طرفٍ من سيرتِه ﷺ وحسن عشرته مع نسائه ورحمته بهنَّ، ولقد نالت سائرُ نساء الأمة نصيبها من هذه الرحمة، فكان من معالم رحمته ﷺ بهن:

١ـ الوصية بهن، والأمرُ بالإحسان إليهن.

فقد كان من بنود خطبته ﷺ في حجة الوداع الوصيةُ بالنساء؛ إذ قال

ﷺ: «**فاتقوا الله في النِّساء، فإنكم أخذتموهنَّ بأمانِ الله، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله...**»(١).

وقال ﷺ مُرَغِّباً الرجال في حسن العشرة معهن: «**خياركم خياركم لنسائهم خُلُقاً**»(٢).

٢ـ وصيته ﷺ بالصبر عليهن، واحتمال ضعف عقولهن، والتجاوز عن هفواتهن.

قال ﷺ: «**إن المرأة كالضِّلَع**(٣)**، إذا ذَهَبْتَ تُقيمها كَسَرْتَها، وإن تركتها استمتعتَ بها وفيها عِوَجٌ**»(٤). وفي رواية: «**وكسرُها طلاقُها**»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم ٢/ ٨٨٩، برقم: ١٢١٨، ك: الحج. ومعنى: «**أخذتموهن بأمان الله**» أي: بإباحة الله، وقوله: «بكلمة الله» هي قوله تعالى: ﴿**فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ**﴾. شرح مسلم للنووي ٤/ ٤٤٣.

(٢) أخرجه الترمذي ٣/ ٤٥٧، برقم: ١١٦٢، ك: الرضاع، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم: ٢٨٤.

(٣) واحد الأضلاع والضُّلوع، وهو عظمٌ من عظام الصَّدر يكون فيه انحناء، وعِرَضٌ، وأيضاً: هو العُودُ فيه اعوجاج. مختار الصحاح (ضلع)، المعجم الوسيط (ضلع).

(٤) أخرجه مسلم ٢/ ١٠٩١، برقم: ١٤٦٨ـ ٦٠، ك: الرضاع.

(٥) مسلم برقم: ١٤٦٨ ـ ٦١.

قال الإمام النووي: « في هذا الحديث: ملاطفةُ النساءِ، والإحسانُ إليهن، والصبر على عوج أخلاقهن...»[1].

٣ـ وصيته ﷺ بالرِّفق بهن، والنهيُ عن كل ما فيه أذيتهن أو الإضرارُ بهن.

فمن ذلك: أنه ﷺ كان في بعض أسفاره، وغلامٌ يقال له: أنجشة يحدو[2]، فقال له النبي ﷺ: «**يا أنجشة! رويدك، سوقاً بالقوارير**»[3].

يعني: ارفق في سوقك بالقوارير[4]. وفي رواية: «**رويداً يا أنجشة! لا تكسر القوارير**». يعني: ضعفة النساء.

وقد ذكر أهل العلم أن مراده ﷺ بهذا الكلام: أمرُ الحادي بالرفق بالنساء في السير، وعدم تعريضهن لما يؤذيهن أو يسبب لهن الضرر[5].

ومن الأمثلة العملية للرفق بالنساء في حياته ﷺ: قصةُ أسماء بنت

---

(١) شرح صحيح مسلم ٥/ ٣١٥.

(٢) الحداء والحدو: سَوقُ الإبل والغناء لها. مختار الصحاح (حدا).

(٣) أخرجه البخاري ١٠/ ٥٣٨، برقم: ٦١٤٩، ك: الأدب، ومسلم ٤/ ١٨١٠، برقم: ٢٣٢٢، ك: الفضائل.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ٨/ ٨٩.

(٥) انظر: فتح الباري ١٠/ ٥٤٥ ـ ٥٤٦، المرحومون في السنة النبوية: ٨٦.

أبي بكر رضي الله عنها، «**حين رآها تحمل النَّوى على رأسها في الطريق، فأشفق عليها، ورحم ضعفها، فأناخ لها بعيره؛ لتركب، فأبت رضي الله عنها حياء منه**»[1].

وقد نهى ﷺ عن كل ما يسبب لهن الأذى النفسي ـ أو الجسدي، فقال ﷺ: «**ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت**»[2].

٤ ـ رعايته ﷺ لحقوقهن والعمل على إيصالها إليهن وتمتعهن بها.

فقد بين ﷺ حقوق المرأة، ودعا إلى حفظها وعدم تضييعها، وذلك في كثير من الأمور، فمن ذلك:

إقراره ﷺ بحقها في اختيار زوجها، فقد سألته عائشة رضي الله عنها عن الجارية يُنْكحها أهلها، أتستأمر أم لا؟ فقال لها رسول الله ﷺ: «**نعم، تستأمر**»[3].

وتأكيداً منه ﷺ على هذا الحق للمرأة، فقد «**ردَّ نكاح امرأةٍ زَوَّجَها أبوها وهي كارهة**»[4].

---

(١) أخرجه البخاري ٩/ ٣١٩، برقم: ٥٢٢٤، ك: النكاح.

(٢) أخرجه أبو داود ٢/ ٦٠٦، برقم: ٢١٤٢، ك: النكاح، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم: ٣١٤٩.

(٣) أخرجه البخاري ٩/ ١٩١ برقم: ٥١٣٧، ومسلم ٢/ ١٠٣٧، برقم: ١١٤٢٠، كلاهما في ك: النكاح، واللفظ لمسلم، وانظر: نبي الرحمة، لياقوت: ٢٧٧.

(٤) أخرجه البخاري ٩/ ١٩٤، برقم: ٥١٣٨، ك: النكاح.



وحفظ لها ﷺ حقها في النفقة والكسوة بالمعروف، فقال ﷺ حين سئل عن حق المرأة على زوجها: «**أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت**»[1].

وكفل لها حقها في التعلم والتفقه في أمور دينها، كما سيأتي ذكره في الذي بعده.

٥ـ الحرصُ على تعليمهن ما ينفعهن، ودلالتهن على يقربهن من ربهن وتحذيرهن مما فيه سخطه وعذابه.

وهذا من تمام رحمته ﷺ بهن، فقد جعل لهن يوماً وحدهن لتعليمهن[2]. وكان يخرج إليهن فيعظهن ويذكرهن ويأمرهن بالصدقة، فيقول: «**تصدقن؛ فإنَّ أكثركن حَطَبُ جهنم**»[3]. وفي ذلك دلالة على حرصه ﷺ على وعظهن وتذكيرهن الآخرة، وأحكام الإسلام[4]؛ رحمةً بهن وشفقةً عليهن من النار.

* * *

(١) أخرجه أبو داود ٢/ ٦٠٦، برقم: ٢١٤٢، ك: النكاح، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم: ٣١٤٩.

(٢) أخرجه البخاري ١/ ١٩٥، برقم: ١٠١، ك: العلم.

(٣) أخرجه مسلم ٢/ ٦٠٣، برقم: ٨٨٥ ـ ٤، ك: العيدين.

(٤) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٣/ ٤٤٢.

المطلب الثاني: معالمُ الرحمةِ في علاقته ﷺ بالصغار والأطفال.

لقد كان ﷺ أرحمَ الناس بالأطفال والصِّبيان، وأحناهم عليهم، وأرأفهم بهم، قال أنس رضي الله عنه: «**ما رأيتُ أحداً كان أرحمَ بالعِيالِ من رسول الله ﷺ**»[1]. وبوَّب عليه النووي بقوله: «باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال... وفضل ذلك»[2].

ومن معالم رحمته ﷺ بالصغار وشفقته عليهم:

١ـ الوصية برحمتهم، والترهيب من الغلظة وقسوة القلب معهم.

فقد أوصى ﷺ برحمتهم، وحذر من ضد ذلك أشدَّ التحذير، فقال ﷺ: «**ليس منا من لم يَرْحَمْ صغيرنا، ويوقر كبيرنا**»[3].

قال المناوي معلقاً على هذا الحديث: «... فيتعين أن يعامل كلًّا منهما بما

---

(١) أخرجه مسلم ٤/ ١٨٠٨، برقم: ٢٣١٦، ك: الفضائل.

(٢) شرح صحيح مسلم ٨/ ٨٢.

(٣) أخرجه الترمذي ٤/ ٣٢٢، برقم: ١٩٢٠، ك: البر والصلة، وابن حبان ـ كما في الإحسان ١/ ٣٤١ برقم: ٤٥٩ ـ، وقال الترمذي: حسن صحيح، ورمز له السيوطي بالصحة (الجامع الصغير برقم: ٧٦٩٢)، ووافقه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم: ٥٤٤٥.

يليق به، فيعطي الصغير حقه من الرفق به، والرحمة والشفقة عليه...»[1].

وبين ﷺ أن عدم اللطف معهم والحنوّ عليهم من قساوة القلب؛ فقد قال للأقرع بن حابس عندما تعجَّب من تقبيل النبي ﷺ الحسن: «**أَوَ أَمْلِكُ لك أن نزع الله الرحمة من قلبك!؟**»[2].

٢ـ تقبيلهم، ومعانقتهم، وضمهم، وحملهم، وإردافهم، والحنوُّ عليهم.

تقدم ذكر قصة حمله ﷺ للحسن على عاتقه، وتقبيله له.

«**وكان ابنه إبراهيم مُسْتَرْضِعاً له في عوالي المدينة، فكان ﷺ ينطلق مع أصحابه، فيدخل عليه، فيأخذه فيُقَبِّلُه، ثم يرجِعُ**»[3]. وفي رواية: «**فدعا النبي ﷺ بالصبيِّ فضمَّه إليه**»[4].

قال النووي: «فيه بيان كريم خلقه ﷺ، ورحمته للعيال والضعفاء... وفضيلة رحمة العيال والأطفال وتقبيلهم»[5].

(١) فيض القدير ٥/ ٣٨٨.

(٢) تقدم تخريجه. وانظر: فتح الباري ١٠/ ٤٣٠.

(٣) أخرجه مسلم ٤/ ١٨٠٨، برقم: ٢٣١٦، ك: الفضائل.

(٤) صحيح مسلم برقم: ٢٣١٥.

(٥) شرح صحيح مسلم ٨/ ٨٥.

وقال العز بن عبد السلام: «وأما تقبيلهم وإعناقهم: فرأفةٌ بهم، وودٌّ لهم»[1].

٣ـ الدعاء لهم، وتحنيكهم، والتبريك عليهم.

فقد كان أصحاب النبي ﷺ إذا وُلد لأحدهم ولدٌ، ذهب به إلى النبي ﷺ، فيدعو له، ويُحَنِّكه[2]، ويبرِّك عليه، وربما سمَّاه، كما حدث ذلك مع أبي موسى الأشعري، وأسماء بنت أبي بكر، وأبي طلحة الأنصاري وغيرهم. وفي قصة أبي موسى رضي الله عنه: «**وُلد لي غلامٌ، فأتيتُ به النبيَّ ﷺ، فسمَّاه إبراهيم، فحنَّكه بتمرة، ودعا له بالبركة، ودفعه إليَّ**»[3].

٤ـ السلام عليهم إذا لقيهم أو مرَّ بهم.

عن أنس رضي الله عنه: «**أن رسول الله ﷺ مَرَّ على غِلْمان، فسَلَّمَ عليهم**»[4]. وفي رواية: «**كان رسول الله ﷺ يزور الأنصار، فيسلم على صبيانهم، ويمسح على**

(١) شجرة المعارف والأحوال ص ٢١٢.

(٢) التحنيك: أن يمضغ التمر، ثم يدلك به حنكه، يقال: حنَّكه وحنكه. النهاية (حنك).

(٣) أخرجه البخاري ١٠/ ٥٧٨، برقم: ٦١٩٨، ك: الأدب.

(٤) أخرجه البخاري ١١/ ٣٢، برقم: ٦٢٤٧، ك: الاستئذان، ومسلم ٤/ ١٧٠٨، برقم: ٢١٦٨، ك: السلام، واللفظ له.



رؤوسهم، ويدعو لهم»[1].

قال العز بن عبد السلام معلقاً على صنيع النبي ﷺ: «وذلك لطفٌ وجبرٌ وإكرامٌ»[2].

٥ـ صبره ﷺ عليهم، وتحمله ما قد يسببونه له من الأذى والمشقة رحمة بهم.

فمن ذلك ما روته عائشة رضي الله عنها: «**أن النبيَّ ﷺ وَضَعَ صبيّاً في حِجْرِه يحنكه، فبال عليه، فدعا بماء فأتبعه**»[3].

قال الحافظ ابن حجر: «يستفاد منه الرفق بالأطفال، والصبر على ما يحدث منهم، وعدم مؤاخذتهم؛ لعدم تكليفهم»[4].

ولما ركب الحسنُ أو الحسينُ على ظهره ﷺ يوماً وهو ساجدٌ، أطالَ السجودَ جدّاً، حتى قال له الناس بعد الصلاة: إنك سجدتَ سجدةً أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمرٌ أو أنه يوحى إليك، فقال ﷺ: «**كُلُّ ذلك لم يكن، ولكن**

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى ٧/ ٣٨٦، برقم: ٨٢٩١، وابن حبان ـ كما في الإحسان ١/ ٣٤٢، برقم: ٤٦٠ ـ، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم: ٤٩٤٧.

(٢) شجرة المعارف والأحوال ٢١٣.

(٣) أخرجه البخاري ١٠/ ٤٣٣، برقم: ٦٠٠٢، ك: الأدب.

(٤) فتح الباري ١٠/ ٤٣٤.

ابني ارْتَحَلَني[1]**، فكرهتُ أن أُعْجِلَهُ حتى يقضي حاجته»**[2].

٦ـ ملاعبتهم ومداعبتهم، والمزاح معهم، والانبساط إليهم، وإدخالُ السُّرور عليهم.

فعن أنس رضي الله عنه قال: إن كان رسولُ الله ﷺ ليُخَالِطُنا حتى يقول لأخٍ لي صغيرٍ: «**يا أبا عُمَير، ما فعل النُّغَير**[3]**؟**»[4].

قال العز بن عبد السلام: «مداعبةُ الصبيان: بسطٌ لهم، وتطييبٌ لقلوبهم، وترويحٌ عن نفوسهم»[5].

٧ـ دعاؤه ﷺ للمريض منهم.

قال السائب بن يزيد: «**إن خالتي ذهبت بي إلى النبي ﷺ فقالت:**

---

(١) أي: جعلني كالراحلة فركب على ظهري. النهاية (رحل).

(٢) أخرجه النسائي في المجتبى ٢/ ٢٢٩، وفي السنن الكبرى ١/ ٣٦٦، برقم: ٧٣١، والحاكم في المستدرك ٣/ ١٦٥ــ١٦٦، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٣) تصغير: النُّغْر، وهو طائر يشبه العصفور أحمر المنقار، ويجمع على نِغْران. (النهاية: نغر).

(٤) أخرجه البخاري ١٠/ ٥٢٦، برقم: ٦١٢٩، ك: الأدب، ومسلم ٣/ ١٦٩٢، برقم: ٢١٥٠، ك: الآداب.

(٥) شجرة المعارف والأحوال: ٢١٣.



يا رسول الله! إنَّ ابن أختي شاكٍ، فادع الله له، فدعا لي النبي ﷺ. فبلغ السائب أربعاً وتسعين وكان جلداً معتدلاً»[1].

***

المطلب الثالث: معالمُ الرحمةِ في علاقته ﷺ بالبنات.

وإذا كان النبي ﷺ قد أحاطت رحمته وشفقته بالأطفال والصغار عموماً، فإنه قد أولى البنات مزيد عنايته، وخصَّهن برعايته، ومن مظاهر ذلك:

١ـ وصيته ﷺ بهن، وحثُّه على الإحسان إليهن ورحمتهن، فقد قال ﷺ: «من يلي من هذه البنات شيئاً، فأحسن إليهن كُنَّ له سِتْراً من النَّارِ»[2].

٢ـ وقد مضى ذكر شيء من مواقفه ﷺ في الرحمة بالبنات، وإيناسهن، والإحسان إليهن، وذلك في قصة حمله أمامة بنت زينب في الصلاة.

***

---

(١) أخرجه البخاري ٦/ ٥٦٠ـ٥٦١، برقم: ٣٥٤٠، ك: المناقب، وانظر: المرحومون في السنة النبوية: ص ٧٧.

(٢) أخرجه البخاري ١٠/ ٤٢٦، برقم: ٥٩٩٥، ك: الأدب، ومسلم ٤/ ٢٠٢٧، برقم: ٢٦٢٩، ولفظه عنده: «**من ابتلي**».

المطلب الرابع: معالمُ الرحمةِ في علاقته ﷺ بالأيتام والأرامل والمساكين.

واليتيم: هو الذي فقد أباه قبل بلوغه، وجمعه: أيتام، ويتامى، ولقد قال الله ﷻ ممتنّاً على نبيه ﷺ ومُذَكِّراً إياه نعمته عليه: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ [الضحى: ٦]، ثم أوصاه باليتيم، فقال: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ [الضحى: ٩]، أي: كما كنت يتيماً فآواك الله، فلا تقهر اليتيم، أي: لا تُهنه ولا تذله، ولا تنهره، ولكن أحسن إليه، وتلطف به[1]. فاستجاب ﷺ لوصية ربه، فكان أرحمَ الناس باليتامى، وأشفقهم عليهم، ومن معالم هذه الرحمة:

١ـ وصيته ﷺ باليتيم، والترغيب في كفالته، والقيام بأمره، فقال ﷺ: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**»، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى[2].

٢ـ الترهيب الشديد من تضييع حق اليتيم أو أكل ماله؛ فقد قال ﷺ: «**اللهم إني أُحَرِّجُ حقَّ الضعيفين: اليتيم والمرأة**»[3]. والمعنى: ألحق الإثمَ والحرجَ

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٨/ ٤٢٦ـ٤٢٧.

(٢) أخرجه البخاري ١٠/ ٤٣٦، برقم: ٦٠٠٥، ك: الأدب.

(٣) أخرجه أحمد ١٥/ ٤١٦، برقم: ٩٦٦٦، والنسائي في السنن الكبرى ٨/ ٢٥٤، برقم: ٩١٠٤، ٩١٠٥، وابن ماجه ٢/ ١٢١٣، برقم: ٣٦٧٨، ورمز له السيوطي بالصحة في الجامع الصغير برقم: ٢٦٥١، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم: ٢٤٤٧،=



بمن ضَيَّعهما، وقيل: أضَيِّقه وأحرِّمه على من ظلمهما[1].

وأما الأرامل[2] **والمساكين**[3]: فقد رغَّب النبي ﷺ في السعي عليهما، وبيَّن عظيم ثوابِ من قام بذلك، فقال: «**السَّاعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله ـ وأحسبه قال: وكالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر ـ**»[4].

والساعي عليهما: هو الكاسب لهما، العامل لمؤونتهما، الذي يذهب ويجيء في تحصيل ما ينفعهما[5].

ولقد كان ﷺ يمارس هذا الخلق ممارسةً عمليةً، كما روى عبد الله بن

=وفي السلسلة الصحيحة برقم: ١٠١٥.

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث ١/ ٣٦١ (حرج)، فيض القدير ٣/ ٢٠.

(٢) الأرملة: التي لا زوج لها، سميت بذلك لما يحصل لها من الإرمال بفقد الزوج، وهو الفقر. مختار الصحاح (رمل).

(٣) المسكين: الذي لا شيء له، وقيل: الذي له بعض الشيء، وجمعه: مساكين، والمسكنة والتمسكن يدور معناهما على الخضوع، والذلة، وقلة المال وسوء الحال، وقد يقع معناها على الضعف. النهاية ٢/ ٣٨٥ (سكن).

(٤) أخرجه البخاري ١٠/ ٤٣٧، برقم: ٦٠٠٦، ك: الأدب، ومسلم ٤/ ٢٢٨٦، برقم: ٢٩٨٢، ك: الزهد.

(٥) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٩/ ٣٣٩، فتح الباري ١٢/ ٢٣٥.

أبي أوفى رضي الله عنه أنه: «ﷺ **كان يمشي مع الأرملةِ والمسكين فيقضي لهما الحاجة**»[1].

* * *

المطلب الخامس: معالمُ الرحمةِ في علاقته ﷺ بالخدم والرقيق والمملوكين.

أوصى الله عز وجل بالرقيق وملك اليمين، فقال سبحانه: ﴿ **وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا** ﴾ إلى قوله: ﴿ **وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ** ﴾ [النساء: ٣٦]، وما ذلك إلا «لأن الرقيقَ ضعيفُ الحيلة، أسيرٌ بين أيدي الناس»[2].

وقد نال هذا الصِّنفُ من الضعفاء من شفقة النبي ﷺ ورحمته نصيبا كبيرا فمن ذلك:

١ ـ وصيته ﷺ بهم، حتى كان ذلك آخر كلامه من الدنيا.

فقد جعل يوصي أمته في مرض موته ويقول: «**اتقوا الله فيما ملكت**

---

(١) أخرجه النسائي ٣/ ٨، ك: الجمعة، وفي السنن الكبرى ٢/ ٢٨٠، برقم: ١٧٢٨، والحاكم في المستدرك ٢/ ٦١٤، وقال: «صحيح على شرط البخاري ومسلم، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، ورمز له السيوطي بالصحة في الجامع الصغير برقم: ٧١٤٢، ووافقه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم: ٥٠٠٥. وانظر: نبي الرحمة، لياقوت: ٢٩٧، الرحمة والعظمة، للحمد: ٧٢، رحمة للعالمين، لسعيد بن وهف: ٧١.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٠١.

أيمانكم». فجعل يرددها[1]. فرعاهم ﷺ حيّاً، وأوصى بهم بعد مماته خيراً.

٢ـ حسنُ معاملتهم، واللطف معهم، والرفق بهم.

يقول أنس رضي الله عنه وهو خادم النبي ﷺ: «**خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، والله! ما قال لي: أفّاً قطُّ، ولا قال لشيء: لم فعلتَ كذا؟ وهلَّا فعلت كذا؟**» وفي رواية: «**ولا عابَ عليَّ شيئاً**»[2].

ومضى معنا حديث عائشة رضي الله عنها: «**ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً ولا امرأة قط**»[3].

بل وصل إحسانه ﷺ إلى أقارب الخادم، ففي حديث أنس الماضي[4] في قصة مداعبته ﷺ لأبي عمير، قال أنس: فربما حضرت الصلاةُ وهو في بيتنا، فيأمر بالبساط الذي تحته فيُكْنَس وينضَحُ، ثم يقومُ، ونقوم خلفه، فيصلي بنا[5].

---

(١) أخرجه أبو داود ٥/ ٣٥٩، برقم: ٥١٥٦، ك: الأدب، واللفظ له، وابن ماجه برقم: ٢٦٩٨، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم: ٣٨٧٣.

(٢) أخرجه مسلم ٤/ ١٨٠٤، برقم: ٢٣٠٩، ك: الفضائل، وقوله: «أفّاً»: كلمة تقال لكل ما يضجر منه ويستثقل. وانظر: نبي الرحمة، لياقوت: ٣٢٢.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم ذكره.

(٥) صحيح البخاري برقم: ٦٢٠٣.

قال الحافظ ابن حجر: «فيه إكرام أقارب الخادم، وإظهار المحبة لهم؛ لأن جميع ما ذكر من صنيع النبي ﷺ مع أمِّ سليم وذويها، كان غالبه بواسطة خدمة أنس له»[1].

٣ـ تفقدهم وزيارتهم والسؤال عنهم.

فقد مرض غلامٌ يهوديٌّ كان يخدم النبي ﷺ، فزاره، وعرض عليه الإسلام، فأسلم فقال: «**الحمد لله الذي أنقذه بي من النار**»[2].

٤ـ التحذير من إيذائهم، أو التعدي عليهم، أو إلحاق المشقة بهم، والحث على العفو عنهم.

فعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: كنتُ أضرب غلاماً بالسوط، وأنه سمع صوتاً من خلفه يقول له: «**اعلم أبا مسعود أن الله أقدرُ عليكَ منكَ على هذا الغلام**»، فالتفت فإذا هو رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! هو حرٌّ لوجه الله، فقال ﷺ: «**أما لو لم تفعل للفحتك النارُ**»[3]. قال النووي رحمه الله: «فيه الحث على الرفق بالمملوك»[4].

---

(١) فتح الباري ١٠/ ٥٨٦.

(٢) أخرجه البخاري ٣/ ٢١٩، برقم: ١٣٥٦، ك: الجنائز.

(٣) أخرجه مسلم ٣/ ١٢٨٠، برقم: ١٦٥٩، ك: الأيمان.

(٤) شرح صحيح مسلم ٦/ ١٤٥.

وقد حرص ﷺ ـ أيضاً ـ على عدم إيذائهم نفسياً ومعنوياً، فنهى عن سبِّهم وشتمهم، أو السخرية منهم واحتقارهم، كما في قصة أبي ذرٍّ رضي الله عنه لماَّ عيَّر غلاماً له بأمِّه، فقال له النبي ﷺ: «**إنك امرؤٌ فيك جاهلية... هم إخوانكم**»[1]. يعني: الخدم والعبيد.

كما نهى ﷺ عن تكليفهم من العمل ما يشقُّ عليهم؛ فقال: «**ولا تُكَلِّفوهم ما يَغْلِبُهم، فإن كلَّفتموهم فأعينوهم**»[2].

٥ـ كفالة حقوقهم والحرص على إيصالها إليهم.

فقد بَيَّنَ ﷺ حقوقَ العبد والخادم على سيده، فقال: «**هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبِسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم...**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٠٥٠، ك: الأدب، ومسلم ٣/ ١٢٨٢، برقم: ١٦٦١، ك: الأيمان.

(٢) أخرجه البخاري ١٠/ ٤٦٥، برقم: ٦٠٥٠، ك: الأدب، ومسلم، برقم: ١٦٦١، ك: الأيمان.

(٣) أخرجه البخاري برقم: ٢٥٤٥ ك: العتق، ومسلم، برقم: ١٦٦١، ك: الأيمان. وانظر: شرح صحيح مسلم للنووي ٦/ ١٤٨ـ١٤٩، فتح الباري ٥/ ١٧٤ـ ١٧٥، نبي الرحمة، لياقوت: ٣١٧.

فتضمن هذا الحديث الشريف ميثاقاً نبويّاً لحقوق الخدم والرقيق، يحفظ لهم كرامتهم، ويصون لهم حقوقهم، فأين المواثيق الدولية الآن من هذه الرحمة النبوية، والشفقة المحمدية!؟

* * *

المطلب السادس: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالفقراء والمحتاجين.

وهذا جانب آخر من جوانب رحمته وشفقته ﷺ بضعفة الناس، وهم طائفة الفقراء والمحتاجين، ومن مظاهر الرحمة النبوية بهم:

١ـ أنهم كانوا أهلَ مجالستِه ﷺ والمقربين منه، فقد أوصاه ربُّه بهم، فقال له: ﴿ **وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ** ﴾ [الأنعام: ٥٢] أي: واصبر مع أهل الذكر والعبادة، وإن كانوا فقراء[١]، «فامتثل ﷺ هذا الأمرَ أشدَّ امتثال، فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين، صبَّر نفسه معهم، وأحسنَ معاملتهم وألان لهم جانبه، وحسَّن خلقَه، وقرَّبهم منه، بل كانوا هم أكثرَ أهل مجلسه، رضي الله عنهم»[٢].

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥١ـ١٥٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ٤٧٦، وانظر: من لطائف التفسير، لعقيلان ١/ ٣٢٧ـ٣٢٨.

٢ـ الاهتمام بأمرهم، والإحسان إليهم، والترغيبُ في التصدُّق عليهم.

فقد جاءه يوماً قومٌ من مُضَر حفاةٌ عُراةٌ، فتمَعَّر[١] وجهه ﷺ لِما رأى بهم من الفاقَة، فدخل ثم خرج، ثم خطب الناسَ وحثَّهم على الصدقة، فتصدق الناسُ حتى اجتمع كومان من طعامٍ وثيابٍ، فتهلل وجه النبي ﷺ حتى كأنه مُذْهَبَةٌ[٢].

وكان ﷺ يولي أصحابَ الصُّفَّةِ[٣] الفقراء عنايتَه واهتمامه، فكان ﷺ يقول لأصحابه: «**من كان عنده طعامُ اثنين فليذهب بثالثٍ ـ يعني من أهل الصُّفَّةِ ـ، ومن كان عنده طعامُ أربعةٍ فليذهب بخامس أو سادس**». وانطلق هو ﷺ إلى بيتِه بعشرة[٤].

٣ـ تفقدهم والسؤال عنهم.

فمن ذلك: ما سبق من سؤاله عن المرأة السوداء التي كانت تقمُّ المسجد

---

(١) أي: تغيَّر. شرح صحيح مسلم للنووي ٤/ ١١٢.

(٢) أي: استنار وجهه وأشرق من الفرح حتى كأنه فِضَّة مذهبة. (شرح صحيح مسلم للنووي ٤/ ١١٣).

والحديث أخرجه مسلم ٢/ ٧٠٤، برقم: ١٠١٧، ك: الزكاة.

(٣) هو مكان في مؤَخَّر المسجد النبوي مُظَلَّلٌ أُعدَّ لنزول الغرباء ممن لا مأوى له ولا أهل. (فتح الباري ٦/ ٥٩٥).

(٤) أخرجه البخاري ٦/ ٥٨٧، برقم: ٣٥٨١، ك: المناقب.

حينما فقدها، وصلاته ﷺ على قبرها لما أُخبر أنها ماتت؛ اهتماماً بشأنها، وتقديراً لما كانت تقوم به.

* * *



المبحث الخامس

معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالمُسنِّين، والمرضى، والميِّتين

ومن جملة فئات المجتمع الذين شملتهم رحمته ﷺ وبِرُّه ورعايته: طائفة المرضى والمعاقين، وكبار السنِّ، والموتى؛ فهؤلاء أولى الناس بالرحمة والإحسان، وأحوج من غيرهم إلى العطف والحنان.

ولنستعرض فيما يأتي طرفاً من معالم الرحمة في علاقته ﷺ بهم:

المطلب الأول: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالمسنين.

والمُسنُّون هم الذي أسنُّوا أو استسنُّوا، أي: كبرت أسنانهم وطالت أعمارهم[1].

ومن مظاهر رحمته ﷺ بهم:

١ـ الوصية بهم والحث على إكرامهم.

فقد قال ﷺ: «**إنَّ من إجلالِ الله**[2] **إكرامَ ذي الشَّيبةِ المسلمِ**»[3]. وهذا حثٌّ

(١) انظر: المعجم الوسيط (سن).

(٢) أي: تعظيمه وتبجيله.

(٣) أخرجه أبو داود ٥/ ١٧٤، برقم: ٤٨٤٣، ك: الأدب، والبيهقي ٨/ ١٦٣، وحسنه النـووي=

منه ﷺ على «تعظيم الشيخ الكبير، صاحب الشيبة البيضاء... والرفقِ به، والشفقةِ عليه»[1].

ولا شك أن هذه الوصية النبوية يندرج تحتها كل صور الرعاية والإكرام لكبار السنِّ[2].

٢ـ التيسير عليهم ورفع المشقة عنهم مراعاة لحالهم.

فقد أمر ﷺ بالتجوُّزِ في الصلاة وتخفيفها لأجل كبار السنِّ، واشتد غضبه ﷺ على من أطال الصلاةَ فشقَّ عليهم، فقال ﷺ: «**إنَّ منكم مُنَفِّرين، فمن أمَّ النَّاسَ فليتجوَّز؛ فإن خلفَه الضَّعيفَ، والكبيرَ، وذا الحاجةِ**»[3].

ورخص ﷺ للكبير أن يحج عنه غيره إن لم يستطع، فقال للمرأة التي ذكرت أن أباها شيخٌ كبيرٌ لا يستطيع أن يستوي على الدابة: «**حُجِّي عنه**»[4].

=(رياض الصالحين: ٣٥٤)، وحسن إسناده العراقي وابن حجر. (فيض القدير ٢/ ٥٢٩).

(١) فيض القدير ٢/ ٥٢٩.

(٢) انظر: نبي الرحمة ٣٤١ـ ٣٤٢.

(٣) أخرجه البخاري ٢/ ٢٠٠، برقم: ٧٠٤، ك: الأذان، ومسلم ١/ ٣٤٠، برقم: ٤٦٦، ك: الصلاة.

(٤) أخرجه مسلم ٢/ ٩٧٤، برقم: ١٣٣٥، ك: الحج. وانظر: نبي الرحمة: ٣٣٩ـ ٣٤٨، ورحمة للعالمين: ٧٥ـ٧٦.

المطلب الثاني: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالمرضى.

لقد أحاط ﷺ المرضى بشفقته وعنايته، فكان من مظاهر الرحمة في علاقته بهم:

١ـ تبشيرهم بأن الأمراضَ مكفرةٌ للخطايا والذنوب، رافعةٌ للدرجات.

فقد قال ﷺ: «**ما يُصيبُ المؤمنَ من وَصَبٍ، ولا نصبٍ**[١]**، ولا سَقَمٍ، ولا حَزَنٍ، حتى الهَمَّ يُهَمُّه، إلا كُفِّر به من سيئاته**». وفي رواية: «**حتى الشوكة يُشاكُها**»[٢].

ولا شك أن هذه البشارة للمرضى تريح نفوسهم، وتعينهم على الصبر على آلامهم، واحتساب الأجر فيما أصابهم، فتكون بذلك رحمةً لهم.

٢ـ حثه ﷺ على التداوي، وبيانه لبعض الأدوية النافعة، وطرق العلاج الناجعة، وعلاجه للمرضى بنفسه.

فقال النبي ﷺ: «**ما أنزل الله من داءٍ إلا أَنْزَلَ له شفاءً**»[٣]. وفي رواية:

---

(١) الوصب: المرض والوجع اللازم، والنَّصَبُ: التعب. انظر: شرح النووي على مسلم ٨/ ٣٧٥.

(٢) أخرجه البخاري ١٠/ ١٠٣، برقم: ٥٦٤١، ٥٦٤٢، ك: المرضى، ومسلم ٤/ ١٩٩٢، برقم: ٢٥٧٣، ك: البر والصلة ـ واللفظ له ـ.

(٣) أخرجه البخاري ١٠/ ١٣٤، برقم: ٥٦٧٨، ك: الطب.

«**عَلِمَه من علمه، وجهله من جهله**»[1]. قال ابن القيم رحمه الله: «وفي قوله: «**لكل داء دواء**» تقويةٌ لنفسِ المريض... وحثٌّ له على طلب ذلك الدواء، والتفتيش عنه»[2].

«**وحَسَمَ**[3] ﷺ **بيده سعدَ بن معاذ لما أُصيب يوم الأحزاب في أَكْحَلِه**»[4].

«**وكان ﷺ يمسح بيده من يشتكي من أهله ـ أو غيرهم ـ ويدعو له**»[5].

٣ـ عيادته ﷺ للمرضى، والدعاءُ لهم، وترغيبُ أمته في ذلك.

فقد زار ﷺ سعد بن أبي وقاص لما اشتكى، فوضع يده عليه، ثم قال: «**اللهم اشفِ سعداً، وأتمَّ له هِجْرَتَه**»[6].

وعاد رجلاً محموماً، ودعا له فقال: «**لا بأس، طهورٌ إن شاء الله**»[7].

وكان ﷺ ربما بكى ودمعت عيناه عند زيارته المريض رحمةً وشفقةً ورأفةً

(١) مسند أحمد ٣٠/ ٣٩٨، برقم: ١٨٤٥٦.

(٢) زاد المعاد ٤/ ١٧.

(٣) أي: كواه ليقطع الدم.

(٤) أخرجه مسلم ٤/ ١٧٣١، برقم: ٢٢٠٨، ك: السلام، والأكحل: عِرْقٌ في اليد يُفصد.

(٥) أخرجه مسلم ٤/ ١٧٢١، برقم: ٢١٩١، ك: السلام.

(٦) أخرجه البخاري ١٠/ ١٢٠، برقم: ٥٦٥٩، ك: المرضى.

(٧) صحيح البخاري برقم: ٥٦٦٢.

منه ﷺ، كما حدث عند زيارته لسعد بن عبادة[1].

وقد رَغَّبَ ﷺ أمته في عيادة المرضى، وبَيَّنَ لهم عظيم ثوابها، فقال: «**من عاد مريضاً، لم يزل في خُرفَةِ[2] الجنة حتى يرجِعْ**»[3].

٤ـ التخفيفُ عنهم في التكاليف الشرعية؛ مراعاةً لحالهم، ورحمة بهم.

فقد أمر ﷺ الأئمة بتخفيف الصلاة؛ فقال: «**إذا صلى أحدكم للناس فليُخَفِّفْ؛ فإن فيهم الضعيفَ والسقيمَ والكبيرَ...**»[4].

***

المطلب الثالث: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالمعاقين.

فئة المعاقين ـ أو من يعرفون بذوي الاحتياجات الخاصة ـ: هم الذي ابتُلوا بشيءٍ من الأمراض والعاهات، بصورةٍ تعوقهم عن أداء وظائف حياتهم على الوجه الأكمل، كغيرهم من الأصحَّاء؛ كالعُميان، ومن به عَرَجٌ، أو جنونٌ وغير ذلك.

---

(١) صحيح مسلم برقم: ٩٢٤.

(٢) هو الحائط من النخيل، فكأنَّ العائدَ للمريض على نخل الجنة يخترف ثمارها (النهاية: خرف).

(٣) أخرجه مسلم، ٤/ ١٩٨٩، برقم: ٢٥٦٨ ـ ٤٠، ك: البر والصلة.

(٤) أخرجه البخاري ٢/ ١٩٩، برقم: ٧٠٣، ك: الأذان، والسقيم: الذي به مرض.

وقد شملتهم رحمة النبي ﷺ ورعايته، فكان من مظاهر هذه الرحمة لهم:

١ـ مواساته ﷺ لهم، وإكرامه إياهم، وبيان عظم ثوابهم.

فقد قال ﷺ: «**من يُرِدْ الله به خيراً يُصِبْ منه**»[١]. أي: يصيبه بالبلايا والمصائب ليثيبه عليها[٢].

وقال ﷺ: «**يقول الله ﷻ: من أَذْهَبْتُ حبيبتيه ـ يعني: عينيه ـ فصَبَر واحتسَبَ، لم أرْضَ له ثواباً دونَ الجنة**»[٣].

وكان ﷺ يُكْرِمُ ابنَ أمِّ مكتوم الأعمى، ويَهَشُّ له، بعد أن عاتبه ربُّه في شأنه[٤].

٢ـ قضاؤه ﷺ حاجاتهم، والصبرُ على ما قد يلحقه من المشَقَّة في سبيل ذلك.

فقد كانت امرأة في عقلها شيءٌ، فقالت للنبي ﷺ يوماً: إن لي إليك

---

(١) أخرجه البخاري ١٠/ ١٠٣، برقم: ٥٦٤٥، ك: المرضى.

(٢) فتح الباري ١٠/ ١٠٨.

(٣) أخرجه الترمذي ٤/ ٦٠٣، برقم: ٤٤٠١، ك: الزهد، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم: ٨١٤٠.

(٤) انظر: جامع الترمذي ٥/ ٤٣٢، تفسير سورة عبس، برقم: ٣٣٣١، وتفسير ابن كثير ٨/ ٣١٩.

حاجةً، فقال لها: «**يا أمَّ فلان! انظري أي السِّكَكِ شئتِ حتى أقضي لك حاجتك**»(١).

ولما طلب منه عِتْبان بن مالك ـ وكان قد عمي ـ أن يأتيه في بيته فيُصلي له ليتخذه مصلى، قال له ﷺ: «**سأفعل إن شاء الله**»، ولَبَّى طلبه(٢).

٣ـ تحذيره ﷺ من أذيَّتهم.

فقد قال النبي ﷺ: «**لعن اللهُ من كَمَّهَ أعمى**(٣) **عن السبيل**»(٤).

٤ـ التيسير عليهم، ورفعُ الحرج عنهم، وعدم تكليفهم من الأحكام الشرعية إلا ما يطيقونه.

فقد قال ﷺ لعمرو بن الجَموح ـ وقد أراد الجهاد يوم أُحُد وكان به عرجٌ ـ:

---

(١) أخرجه مسلم ٤/ ١٨١٢ـ ١٨١٣، برقم: ٢٣٢٦، ك: الفضائل.

(٢) أخرجه البخاري ١/ ٥١٩، برقم: ٤٢٥، ك: الصلاة، ومسلم ١/ ٦١، برقم: ٣٣، ك: الإيمان.

(٣) يعني: أضلَّه عن الطريق، يقال: تكمَّه في الأرض: ذهب متحيراً ضالًّا لا يدري أين يتجه. (المعجم الوسيط: كمه).

(٤) أخرجه أحمد ٥/ ٢٦، برقم: ٢٨١٦، والحاكم ٤/ ٣٥٦، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم: ٥٨٩١، وهو قطعة من حديث طويل.

«**أمَّا أنت فقد عذَرَك الله، فلا جِهاد عليك**»، وفي لفظ: «**قد وضَعَ عنك الجهاد**»[1].

***

المطلب الرابع: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بموتى المسلمين وشهدائهم.

لم تقتصر رحمته ﷺ على الأحياءِ من أمَّته، بل شملت الموتى أيضاً، وكان من معالم هذه الرحمة:

١ـ حُزْنُه ﷺ على فِراقِهم، وتأثُّره بفقدهم.

فقد دمعت عيناه ﷺ حين مات ابنه إبراهيم، وقال: «**إنا بك لمحزونون**»[2].

وفاضت عيناه لما رُفعَ إليه ابن ابنته زينب ونفسُه تَقَعْقِعُ[3]، «**فلم يملك عينيه من الرحمة والشفقة**»[4].

(١) رواه ابن إسحاق (سيرة ابن هشام ٢/ ٩٠ـ٩١)، ومن طريقه أبو نعيم في معرفة الصحابة ٤/ ١٩٨٥، برقم: ٤٩٨٢، وانظر: البداية والنهاية ٥/ ٤١٨.

(٢) تقدم ذكره.

(٣) تقدم ذكره.

(٤) فتح الباري ٣/ ١٥٦.



وفي صنيعه هذا كله ترغيب للأمة «في الشفقة على خلق الله، والرحمة لهم، والترهيب من قساوة القلب، وجمود العين»[١]. وحزن ﷺ حُزْناً شديداً وذرفت عيناه حين بلغه قتلُ زيد وجعفر وابن رواحة في غزوة مؤتة[٢]. ولم يُرَ ﷺ حَزِنَ حُزْناً قطُّ أشدَّ من حُزْنِه حين قُتِلَ القُرَّاءُ من أصحابه[٣].

٢ـ الصلاة عليهم، وتشييعُ جنائزهم، والمشاركةُ في دفنهم.

فقد كان ﷺ يُصلِّي على موتى المسلمين، ويُخلص في الدُّعاء لهم، ويحثُّ المسلمين على ذلك؛ لما فيه من الرحمة ورجاء المغفرة للميت، وقد أخبرهم «**أنَّ من صلَّى على جنازة فله من الأجر قيراطٌ مثل الجبل العظيم**»[٤].

وكان ﷺ «**يتبع جنائزهم ويرَغِّبُ المسلمين في ذلك**»[٥].

وكان ﷺ «**إذا فاتته الصلاة على الجنازة، ذهب إلى قبرِ الميت،وصلَّى على القبر؛ كما صلى على قبر رجلٍ دُفِنَ بليلٍ لما أصبح**»[٦].

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٥٨.

(٢) صحيح البخاري ٣/ ١١٦، برقم: ١٢٤٦، ك: الجنائز.

(٣) صحيح البخاري ٣/ ١٦٧، برقم: ١٣٠٠، ك: الجنائز.

(٤) صحيح البخاري برقم: ١٣٢٥، ك: الجنائز. وانظر: شرح صحيح مسلم للنووي ٤/ ٣٧.

(٥) صحيح البخاري برقم: ١٣٢٣، ك: الجنائز.

(٦) صحيح البخاري ٣/ ١١٧، برقم: ١٢٤٧، ك: الجنائز.

٣ـ إحسانُه إليهم بعد موتهم ودفنهم، وكفُّ الأذى عنهم.

ومن صور هذا الإحسان وتلك الرحمة:

أ/ ترغيب المسلمين في الدعاء للميت بعد دفنه، فكان يقول لهم: «**استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت؛ فإنه الآن يسأل**»[١].

ب/ زيارته ﷺ لقبورهم، والسلامُ عليهم، والدعاءُ والاستغفار لهم، فكان يخرج إلى البقيع من آخر الليل، فيقول: «**السلام عليكم دار قومٍ مؤمنين... اللهم اغفر لأهلِ بقيعِ الغرقَدِ**»[٢].

ج/ ورغَّب أمته في ذلك، فقال: «**زوروا القبورَ؛ فإنها تُذكِّركم الآخرةَ**»[٣].

د/ ونهى ﷺ عن سبِّ الأموات، فقال: «**لا تَسُبُّوا الأموات؛ فإنهم أَفْضَوا[٤] إلى ما قدَّموا**»[٥].

هـ/ وأشفق ﷺ على العُصاةِ والمُذنبين منهم؛ فقد مرَّ ﷺ على قبرين

(١) أخرجه أبو داود ٣/ ٥٥٠، برقم: ٣٢٢١، ك: الجنائز، والحاكم ١/ ٣٧٠، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم: ٩٤٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢/ ٦٦٩، برقم: ٩٧٤، ك: الجنائز.

(٣) أخرجه مسلم ٢/ ٦٧١، برقم: ٩٧٦ـ١٠٨، ك: الجنائز.

(٤) أي: وصلوا إلى ما عملوا من خيرٍ أو شرٍّ. فتح الباري ٣/ ٢٥٩.

(٥) أخرجه البخاري ٣/ ٢٥٨، برقم: ١٣٩٣، ك: الجنائز.



يُعذَّبُ صاحباهما، فوَضَع جريدةً رطبةً على كلِّ قبرٍ، وقال: «**لعلَّه أن يُخَفَّفَ عنهما ما لم يَيْبَسا**»[1].

و/ ونهى ﷺ عن الجلوس على قبورهم أو الاتِّكاءِ عليها، فقال: «**لأن يجلس أحدكم على جَمْرَةٍ، فتحرقَ ثيابه، فتخلص إلى جلده، خيرٌ له من أن يجلس على قَبْرٍ**»[2].

ورأى ﷺ رجلاً متَّكِئاً على قبرٍ، فقال: «**لا تؤذ صاحِبَ هذا القبرِ**»[3].

***

(١) أخرجه البخاري ٣/ ٢٢٢، برقم: ١٣٦١، ك: الجنائز.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ٩٧١، ك: الجنائز.

(٣) أخرجه أحمد ٣٩/ ٤٧٦، برقم: ٣٩/٤٢٠٠٩، قال الحافظ ابن حجر: «إسناده صحيح». فتح الباري ٣/ ٢٢٥.

وانظر: نبي الرحمة ٣٤٩ـ٣٥٧، رحمة للعالمين / ٣٥٦ ـ ٣٥٧.



المبحث السادس

معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالجاهلين والعُصاة والمُذنبين

فقد كان ﷺ رفيقاً رحيماً بهؤلاءِ؛ فالجاهل يُعلَّم بلطفٍ من غير عُنْفٍ، والعاصي يُرفَقُ به ويُفتحُ له باب الأمل في التوبة والإنابة، وفيما يأتي نستعرض بعضاً من صور رفقه ورحمته لهاتين الطائفتين:

المطلب الأول: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالجاهلين.

تمثلت رحمته ﷺ بالجاهلين فيما يأتي:

١ـ الرِّفق بهم، والتَّلَطُّفُ معهم، وترك الشِّدَّة والتعنيف والتقريع لهم.

فعن أنس رضي الله عنه: «**أن أعرابياً بالَ في المسجد، فصاح به الناس، وفي رواية: فزجره الناس، فنهاهم النبي ﷺ، وقال: «دَعوه»، وفي رواية: «لا تُزْرِموه»**[(١)]**. فلما قضى الأعرابيُّ بوله أمَرَ النبي ﷺ بذَنوبٍ**[(٢)] **من ماءٍ فأُهريق عليه**»[(٣)].

(١) أي: لا تقطعوا عليه بوله. النهاية ٢/ ٣٠١ـ زرم.

(٢) الذَّنُوب: الدَّلو العظيمة الممتلئة بالماء. (المصباح المنير ١/ ٢١٠).

(٣) أخرجه البخاري ١/ ٣٢٢، برقم: ٢١٩ـ٢٢١، ك: الوضوء، ومسلم ١/ ٣٢٦، برقم: ٢٨٤ ـ ٢٨٥، ك: الطهارة.

فانظر إلى رفق النبي ﷺ بهذا الرجل رغم سُوءِ ما ارتكب: فلم يعنِّفه، وكفَّ الناسَ عنه لما همُّوا به، ونهاهم عن زجره، وتقريعه، ولم يقطع عليه بوله؛ لما في ذلك من المضرَّة عليه.

وكل هذا رفق منه ﷺ بالجاهلِ، وتركٌ لأذيتِه وتعنيفِه[1]؛ ولذلك قال هذا الأعرابي بعدما فقِهَ: فقام إليَّ - بأبي وأمي - فلم يُؤَنِّبْ، ولم يَسُبَّ[2].

وفي واقعة أخرى يحكي لنا معاويةُ بن الحكم السُّلمي: «**أنه كان في الصلاة مع النبي ﷺ، فعطسَ رجلٌ، فقال له معاوية: يرحمك الله. قال: فرَماني القومُ بأبصارهم، فقلت: واثُكْلَ أُمِّيَاه[3]، ما شأنكم تنظرون إليَّ؟!...**» الحديث[4].

ثم وصفَ معاوية تَصَرُّفَ النبيِّ ﷺ معه بعد الصلاة، فقال: فلمَّا صلَّى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي!... فوالله ما كَهَرني[5]، ولا ضَرَبني، ولا شَتَمني. قال الإمام النووي: «فيه بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ من عظيم الخُلُق...

---

(١) انظر: شرح النووي على مسلم ٢/ ١٩٤، فتح الباري ١/ ٣٢٥.

(٢) سنن ابن ماجه ١/ ١٧٦، برقم: ٥٢٩.

(٣) أي: وافقد أمي إياي، فإني هلكت.

(٤) أخرجه مسلم ١/ ٣٨١، برقم: ٥٣٧، ك: المساجد ومواضع الصلاة.

(٥) أي: ما نهرني.

ورفقه بالجاهلِ»[1].

٢ـ الحِرصُ على تعليمهم ما يلزمهم، وبيانِ الصَّواب لهم.

ففي قصة بول الأعرابي، وقصة تكلُّمِ معاوية في الصلاة الماضي ذكرهما، لم يكن النبي ﷺ رفيقاً بهما فحسبُ، بل أخذ في تعليمهما، ورفع الجهل عنهما؛ فقال للأعرابي: «**إن هذه المساجد لا تَصْلُحُ لشيءٍ من هذا البولِ ولا القذَرِ، إنما هي لذكرِ الله ﷻ، والصلاةِ، وقراءة القرآن**».

وفي حديث معاوية بن الحكم، قال له: «**إنَّ هذه الصلاةَ لا يصلحُ فيها شيءٌ من كلامِ الناسِ؛ إنما هو التسبيحُ، والتكبيرُ، وقراءةُ القرآن**». فأحسن ﷺ تعليمهما في غير عنف، وأزاح الجهلَ عنهما بلطفٍ، فما أرحمه وأرأفه وأشفقه ﷺ.

قال الإمام النووي رحمه الله: «فيه الرفق بالجاهل، وتعليمه ما يلزمه من غير تعنيفٍ ولا إيذاءٍ، إذا لم يأت بالمخالفةِ استخفافاً وعناداً»[2].

وقال العزُّ بن عبد السلام: «الرِّفقُ بالجاهل يؤَلِّفُه ويحُثُّه على التعلم والعمل، والعنفُ يُنفِّرُه عن التعلم والعمل»[3].

---

(١) شرح صحيح مسلم ٣/ ٢٧.

(٢) شرح صحيح مسلم ٢/ ١٩٤. وانظر: فتح الباري ١/ ٣٢٥.

(٣) شجرة المعارف والأحوال: ٢٣٠.



٣ـ التسامح معهم، وقبول اعتذارهم، وتركُ المؤاخذةِ والعتاب لهم.

ففي حديث المرأة التي كانت تبكي عند القبر، «**أمرها ﷺ بالصبر فردَّت عليه بما لا يليق، ثم جاءته معتذرة، فقبل ﷺ عُذْرَها وسامحها، ولم يعاتبها**»[١]، قال الحافظ ابن حجر: «في هذا الحديث... ما كان فيه ﷺ من التَّواضُعِ والرِّفقِ بالجاهلِ، ومسامحةِ المُصابِ، وقبول اعتذاره»[٢].

* * *

المطلب الثاني: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالعُصاة والمُذنبين.

وتتمثل معالم الرحمة في علاقته ﷺ بأهل المعاصي فيما يأتي:

١ـ تحذيره ﷺ أمتَّه من المعاصي، وبيانُ خطر الوقوع فيها، وحثُّهم على الإقلاع عنها.

وذلك بما بيَّنه لهم من حدود الله ومحارمه بياناً شافياً بالكتاب والسنة؛ استنقاذاً لهم من عذاب الله، فكان كما قال ﷺ: «**إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً، فجعلت الدوابُّ والفراشُ يقعن فيه، فأنا آخذٌ بحُجزِكم**[٣]،

---

(١) أخرجه البخاري ٣/ ١٤٨، برقم: ١٢٨٣، ك: الجنائز.

(٢) فتح الباري ٣/ ١٥٠.

(٣) جمع حُجْزة، وهو مجمع الإزار والسراويل. (النهاية: حجز).

وأنتم تقحَّمون[1] فيه»[2].

قال الحافظ ابن حجر: «في الحديث ما كان منه ﷺ من الرأفة والرحمة والحرص على نجاة الأمة»[3].

وبوب النووي على هذا الحديث بقوله: «باب شفقته ﷺ على أمته، ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم».

٢ـ اختباؤه ﷺ دعوته المستجابة شفاعة لأمته، فينتفع بها أهلُ الذُّنوب والمعاصي منهم[4].

٣ـ ترغيبه ﷺ العُصاةَ والمُذنبين في التوبة والاستغفار، وبيان فضل ذلك، وأنَّ الله سبحانه يقبل توبة التائبين، ويغفر ذنوب العاصين، بل ويفرح سبحانه برجوع التائبين إليه.

فقد قال ﷺ مُرَغِّباً في التوبة: «**يا أيها الناس! توبوا إلى الله، فإني أتوبُ في**

---

(١) تقحَّم: أدخل نفسه في الشيء من غير رَوِيَّة. (مختار الصحاح: ق ح م).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١١/ ٣١٦، برقم: ٦٤٨٣، ك: الرقاق، ومسلم ٤/ ١٧٨٩، برقم: ٢٢٨٤، ك: الفضائل.

(٣) فتح الباري ١١/ ٣١٨.

(٤) تقدم ذكره.



اليوم والليلة مئة مرة»[1].

بل كان ﷺ يفرحُ ويُسرُّ بتوبة الله على عباده، ويبشرهم بذلك؛ فإنه لما نزلت توبةُ كعبِ بن مالك، أقبل يُسلِّم على النبي ﷺ، فوجده يَبْرُقُ وجهه من السرور، وقال له: «**أبشِر بخير يومٍ مرَّ عليكَ منذُ ولَدَتْك أمُّك**»[2].

٤ـ حرصُه ﷺ على درءِ الحدودِ عنهم، والسِّتر عليهم.

ففي قصة المعترف على نفسه بالزنا بين يديه ﷺ، ردَّه مراراً، وقال له مرة: «**ويحكَ! ارجِعْ فاستغفِرْ اللهَ وتُبْ إليه**»[3]. ثم لقَّنه الرجوعَ عن إقراره، فقال له: «**لعلك قبَّلتَ أو غَمَزْتَ**»[4].

وكذا فعلَ ﷺ مع المرأةِ الغامدية التي أقرَّت على نفسها بالزِّنا بين يديه[5].

* * *

(١) أخرجه مسلم ٤/ ٢٠٧٥، برقم: ٢٧٠٢ـ ٤٢، ك: الذكر، والدعاء والتوبة والاستغفار.

(٢) صحيح مسلم برقم: ٢٧٦٩.

(٣) صحيح مسلم برقم: ١٦٩٥.

(٤) صحيح البخاري ١٢/ ١٣٥، برقم: ٦٨٢٤، ك: الحدود. ومعنى «غمزت»: أي أشرت بعينك أو يدك، أو المراد: الغمز باليد، أي: لمست. فتح الباري ١٢/ ١٣٥.

(٥) صحيح البخاري ١٢/ ١٢٠، برقم: ٦٨١٥، ومسلم ٣/ ١٣١٨، برقم: ١٦٩١، وما بعده، كلاهما في ك: الحدود.

المبحث السابع

معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالمسافرين والغرباء



إن المسافرَ والغريبَ في أمسِّ الحاجة إلى الرحمة والشفقة؛ لما يكابدانه من مشاقِّ السَّفر، وآلامِ الغُرْبَةِ. وقد وصف ﷺ هذه المعاناة بقوله: «**السفر قطعةٌ من العذابِ، يمنع أحدَكم نومَه وطعامَه وشرابَه**»(١).

ولقد نال هذين الصِّنفين من شفقة النبي ﷺ ورحمته وعنايته ما سنبيِّن طرفاً منه في المطالب الآتية:

المطلب الأول: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالمسافرين.

يمكن أن نستجلي بعضاً من مظاهر رحمته ﷺ بالمسافرين فيما يأتي:

١ ـ أنه ﷺ شَرَع لهم جملة من الرُّخصِ في العبادات تيسيراً عليهم، ورأفةً بهم، فمن ذلك:

أ/ قصر الصلاة الرُّباعية في السفر إلى ركعتين(٢).

---

(١) أخرجه البخاري ٣/ ٦٢٢، برقم: ١٨٠٤، ك: العمرة، ومسلم ٣/ ١٥٢٦، برقم: ١٩٢٧، ك: الإمارة.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٥٧٧، برقم: ١١٠٢، ك: تقصير الصلاة، ومسلم ١/ ٤٧٩، برقم: ٦٨٩، ك: صلاة المسافرين.

ب/ الجمع بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء في وقت أحدهما[1].

ج/ الفطر في رمضان على أن يقضيه المسافرُ بعد عودته وإقامته[2].

د/ مشروعية صلاة النافلة على الدابة والمركوب حيثما توجَّهت بـه، يـومئ برأسه إيماءً[3]. إلى غير ذلك من الرُّخص الكثيرة التي شُرعت للمسافر تيسيراً له، وتخفيفاً عليه، ورحمةً به.

٢ـ كراهته ﷺ أن يسافر المرءُ وحده بلا رفقة أو أن يسير وحده بالليل.

فقد قال ﷺ: «**الرَّاكبُ شيطان، والراكبـان شـيطانان، والثلاثـة رَكِـبٌ**»[4].

وقال ﷺ: «**لو يعلم الناسُ ما في الوَحدَةِ ما أعلَمُ، ما سار راكبٌ بليلٍ وحده**»[5].

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ٥٧٩ برقم: ١١٠٧، ك: تقصير الصلاة.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٨٦، برقم: ١٩٤٧، ١٩٤٨، ومسلم ٢/ ٧٨٤، برقم: ١١١٣، كلاهما في ك: الصيام.

(٣) صحيح البخاري ٢/ ٤٨٩، برقم: ١٠٠٠، ك: الوتر، ومسلم ١/ ٤٨٨، بـرقم: ٧٠١، ٧٠٢، ك: صلاة المسافرين.

(٤) أخرجه أبو داود ٣/ ٨٠، برقم: ٢٦٠٧، والترمذي ٤/ ١٩٣، برقم: ١٦٧٤، وأحمد ١١/ ٦٠، برقم: ٦٧٤٨، قال الترمذي: حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير بـرقم: ٣٥٢٤. والرَّكْبُ: جمع راكب، وهم جماعة السَّفر عشرة فما دونهم.

(٥) أخرجه البخاري ٦/ ١٣٧ برقم: ٢٩٩٨، ك: الجهاد.

وهذه رحمةٌ منه ﷺ وشفقةٌ بالمسافر؛ لما في سَفر الشخص وحده من الخوفِ، وفقدِ المُعين، والتَّعَرُّضِ للمضار والآفاتِ[1].

٣ـ أمره ﷺ المسافرَ أن يُعَجِّلَ بالرجوع إلى أهلِه، ولا يتأخر بعد قضاءِ حاجته لغير ضرورة. قال ﷺ: «**السَّفَر قطعةٌ من العذابِ فإذا قضى أحدُكم نَهْمَتَه[2]، فليُعَجِّل إلى أهله**»[3]. فأمره ﷺ بالرجوع إلى أهله؛ «**ليريح نفسه، ويُفرح أهله**»[4]. ولا شكَّ أن ذلك من الرحمة بالمسافر وأهله.

٤ـ إعانتُه ﷺ للمسافرين ومساعدتهم وتفقُّدهم.

فقد كان من رحمته ﷺ بالمسافرين، وشفقته عليهم: أنه كان في السفر: «**يتخلَّف في المسير، فيُزجي[5] الضَّعيفَ، ويُرْدِف[6]، ويدعو لهم**»[7].

---

(١) انظر: فتح الباري ٦/ ١٣٨، فيض القدير ٤/ ٤٤.

(٢) يعني: حاجته.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) فتح الباري ٦/ ١٣٩.

(٥) أي: يسوقه ليُلحقه بالرِّفاق. (النهاية: زجا).

(٦) أي: يُرْكِبُ خلفه الضعيف من المشاة، أو من عَيِيَ ظهرُه ـ أي: دابته ـ. انظر: عون المعبود ٧/ ٣٠٠، بذل المجهود ٩/ ٢٣٤.

(٧) أخرجه أبو داود ٣/ ١٠٠، برقم: ٢٦٣٩، ك: الجهاد، والحاكم ٢/ ١١٥، وصححه على=



٥ـ توديعه ﷺ للمسافرين ووصيتهم والدعاء لهم.

فقد كان ﷺ يودِّع من أراد سفراً فيقول له: «**أستودع اللهَ دينَكَ وأمانتَك وخواتيمَ عملِك**»(١). وأوصى ﷺ مسافراً فقال له: «**أوصيك بتقوى الله**»، فلما ولَّى الرجلُ دعا له فقال: «**اللهم اطوِ له الأرضَ، وهوِّن عليه السفر**»(٢). وهذا كله شفقةٌ ورأفةٌ منه ﷺ بهذا المسافر؛ لما هو مُقْدِمٌ عليه من المتاعبِ والمشاقِّ.

* * *

المطلب الثاني: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالغرباء.

أما مظاهر رحمته ﷺ بالغرباء(٣) فنذكر منها:

١ـ حسن استقبالهم، والترحيب بهم، والانبساط إليهم.

فقد تلقى ﷺ وفد عبد القيس قائلاً: «**مرحباً بالقومِ ـ أو بالوفدِ ـ غيرَ**

=شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(١) أخرجه الترمذي ٥/ ٤٩٩، برقم: ٣٤٤٣، وقال: حسن صحيح، وصححه الحاكم ٢/ ٩٧، على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه الترمذي ٥/ ٥٠٠، برقم: ٣٤٤٥، ك: الدعوات، وقال: حسن، وصححه الحاكم ٢/ ٩٨ على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٣) الغُرَباء: جمع غريب، يقال: غَرُبَ عن وطنِه غُرْبةً: ابتعد. (المعجم الوسيط: غرب).

خزايا ولا نَدامى»[1].

وهذا منه ﷺ إيناسٌ للقادمِ وبسطٌ له، خاصةً إذا كان غريباً[2].

٢ـ الرِّفقُ بهم، والإحسان إليهم، ورفعُ المشَقَّةِ والحرج عنهم.

ففي حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه: «**أتينا رسول الله ﷺ ونحن شَبَبَةٌ متقاربون**[3]**، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رسول الله ﷺ رحيماً رقيقاً ـ وفي رواية: رفيقاً ـ، فلما رأى شوقنا إلى أهلينا، قال: ارجعوا إلى أهْلِيكم، فأقيموا فيهم وعَلِّمُوهم...»**[4].

قال العز بن عبد السلام: «هذا إحسان إلى المسافِرِ وأهلِه بجمع شملهم»[5].

وقال ابن حجر: «في الحديث... ما كان عليه ﷺ من الشفقة»[6].

وقال اليعقوبي: «أراد ﷺ ألا يشقَّ عليهم، ولا على أهليهم...»[7].

---

(١) أخرجه البخاري ١/ ١٢٩، برقم: ٥٣، ومسلم ١/ ٤٥٧، برقم: ١٧ـ ٢٤، كلاهما في ك: الإيمان.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي ١/ ٢٢٧، فتح الباري ١/ ١٣١.

(٣) أي: شباب متقاربون في السنِّ، وشببة: جمع شاب.

(٤) أخرجه البخاري ٢/ ١١٠، برقم: ٦٢٨، ك: الأذان، ومسلم برقم: ٦٧٤، ك: المساجد.

(٥) شجرة المعارف ٩٠.

(٦) فتح الباري ٢/ ١٧٢.

(٧) الأنوار في شمائل المختار ١/ ٢٠٦.

٣ـ تواضعه ﷺ للغرباء، وخفضُ الجناحِ لهم، والاهتمام بهم.

فيحكي أبو رِفاعةَ موقفاً مع النبي ﷺ يدلُّ على غاية رفقه ﷺ بالغرباء، فيقول: انتهيتُ إلى النبي ﷺ وهو يخطب، فقلت: يا رسول الله! رجلٌ غريبٌ جاء يسأل عن دينِه، لا يدري ما دينه، قال: فأقبل عليَّ رسول الله ﷺ، وتركَ خُطْبَتَه حتى انتهى إليَّ، فأُتي بكرسيٍّ... فقعد عليه رسول الله ﷺ.

وجعل يُعلِّمني ممَّا علَّمه الله، ثم أتى خُطبته فأَتَمَّ آخرها[1].

قال النووي: «فيه تواضع النبي ﷺ ورفقه بالمسلمين وشفقته عليهم، وخفض جناحه لهم»[2].

***

(١) أخرجه مسلم ٢/ ٥٩٧، برقم: ٨٧٩، ك: الجمعة.

(٢) شرح صحيح مسلم ٣/ ٤٣١.

المبحث الثامن

معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالأعداء والمخالفين

لما كانت بعثته ﷺ رحمةً للعالمين، فإن جميع طوائف الناس قد حصل لهم النفع برسالتِه، ونالتهم رحمته وشفقته؛ فكان ﷺ رحمةً للمؤمنين باهتدائهم بما جاء به،فنالوا كرامة الدنيا والآخرة، ورحمةً للكافرين المعاندين بتأخير العذاب عنهم، ورحمةً للمنافقين بالأمان لهم من القتل[1].

أما رحمته ﷺ بالمؤمنين فقد مضى بيان صورٍ منها في المباحث السابقة، ونستعرض فيما يأتي شيئاً من ملامح الرحمة في علاقته بالكفار والمنافقين والمعاهدين.

المطلب الأول: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالمنافقين.

والمنافقون: هم الذين يُظهرون الإيمانَ ويُسرُّون الكفرَ، ويُظهرون الخيرَ ويُسرُّون الشَّرَّ[2]، ومن معالم الرحمة في علاقته ﷺ بهم:

- إحسانُ معاملتهم، والصبرُ على أذاهم، والعفو عن إساءتهم.

(١) انظر: الشفا ١/ ١٥، جلاء الأفهام: ١٩٦-١٩٧.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ١٧٨.



فقد عاملهم النبي ﷺ معاملة المؤمنين: من الرحمة بهم، والإحسان إليهم، وذلك إجراءً لحالهم على الظاهر، دون البحث عمَّا تكنّه سرائرهم[1]، وذلك بالرغم مما لقيه ﷺ منهم من الأذى والمكر والكيد للإسلام وأهله، حتى وصل الأمر بكبيرهم ورأسهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول إلى أذيَّة النبي ﷺ في عرضه وأهله، لمَّا أشاع قَالَةَ السُّوءِ عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وكان المتَوَلِّي كِبْرها[2].

ومن أشهر مواقفه ﷺ في الإحسان إليهم: موقفه من رأس النِّفاق وزعيم المنافقين ابن سلول عندما مات، «**فقد جاء ابنه ـ وكان من فضلاء الصحابة ـ إلى النبي ﷺ وسأله أن يعطيه قميصه ليكَفِّن فيه أباه؛ تطهيراً له، ورغبة في تخفيف العذاب عنه، فأعطاه إياه، ثم سأله أن يصلي عليه، فصلى عليه، حتى أنزل الله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾** [التوبة: ٨٤]»[3].

قال الخطابي: «إنما فعل النبي ﷺ مع عبد الله بن أُبيّ ما فعل؛ لكمال شفقته على من تعلَّق بطَرَفٍ من الدِّين، ولتطييب قلبِ ولده عبد الله الرجل

(١) انظر: الرحمة والعظمة: ٥١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٦/ ١٩.

(٣) أخرجه البخاري ٨/ ٣٣٣، برقم: ٤٦٧٠، ك: التفسير.

الصالح...»(١). وذلك منه ﷺ: إظهارٌ لغايةِ رحمتِه ورأفتِه على من بُعث إليه(٢).

* * *

المطلب الثاني: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالكافرين.

تمثَّلت معالم رحمة المصطفى ﷺ بالكفار المعاندين في كثير من المواقف المُشْرقة، والتي تمتلئ بها سيرته العطرة، مما حدا بكثير من مثقفي الغرب المُنصِفين إلى الوقوف إجلالاً وإكباراً أمام عظمة هذا النبي المصطفى الكريم ﷺ مُسَجِّلين بإعجاب وانبهارٍ شهاداتهم الصادقة لتكون أبلغ ردٍّ على الحاقدين على الإسلام ونبيِّ الإسلام في كلِّ زمانٍ ومكانٍ(٣).

ومن أبرز جوانب الرحمة مع هؤلاء:

١ـ حرصه الشديد ﷺ على هدايتهم وإيمانهم، وحزنه وحسرته على كفرهم وعنادهم وإعراضهم عن الحق.

وذلك من تمام شفقته ورحمته ﷺ، حتى أصابه من جراء ذلك الهمُّ والحزنُ، حتى رحمه ربُّه سبحانه، فقال له جل وعلا مُسَلِّيا: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾

(١) فتح الباري ٨/ ٣٣٦.

(٢) المصدر السابق ٨/ ٣٣٩، وانظر: الرحمة والعظمة: ٥١.

(٣) انظر طرفاً من هذه الشهادات والأقوال في: نبي الرحمة: ٢٢٢ـ٢٣١.



[النمل: ٧٠]، وقال: ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا** ﴾ [الكهف: ٦]، أي: لا تقتل نفسك وتهلكها حُزْناً وأسفاً عليهم لعدم إيمانهم، إنما أنت مُبلِّغٌ، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فعليها، ﴿ **فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ** ﴾ [فاطر: ٨][(١)].

٢ـ صبره على أذاهم وتكذيبهم، وعدم استعجال العـذاب علـيهم؛ رجـاء هدايتهم.

فإنه لما اشتدَّ أذى المشركين له، وتكذيبهم إياه، أرسلَ الله – سبحانه– إليـه ملَكَ الجبال، فقال له: إن شئت أن أُطْبِقَ عليهم الأخشبين[(٢)]، فأجابـه ذو القلـب الرحيم ﷺ: «**بل أرجو أن يُخْرِجَ اللهُ من أصلابهم من يعبدُ الله وحـده لا يشرِـك به شيئاً**»[(٣)].

قال الحافظ ابن حجر: «في هذا الحديث بيانُ شفقة النبي ﷺ على قومه،

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٥/ ١٣٧، شخصية الرسول ﷺ ٤٦ـ٤٧، سيرة الرسول ﷺ ٥٤.

(٢) هما جبلا مكة: أبو قبيس والذي يقابله. (فتح الباري ٦/ ٣١٦).

(٣) أخرجه البخاري ٦/ ٣١٢ برقم: ٣٢٣١، ك: بدء الخلق، ومسلم ٣/ ١٤٢٠، برقم: ١٧٩٥، ك: الجهاد والسير.

ومزيد صبره وحلمه، وهو موافق لقوله تعالى...: ﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]»[١].

٣ـ زيارتهم ومواساتهم.

فقد مضى معنا ذكر زيارته ﷺ للغلام اليهودي الذي كان يخدمه لَّما مرض. وهذا ـ لا شك ـ بِرٌّ منه وإحسان، وحسن عهد ووفاء، ورحمة وشفقة حتى مع غير المسلمين، فصلوات ربي وسلامه عليه من رسول كريم رحيم.

٤ـ مقابلة إساءاتهم بالإحسان، والدعاء لهم شفقةً عليهم، ورحمةً بهم.

فإنهم لما أَدْمَوه يوم أُحد، قال: «**اللهم اغفر لقومي فإنَّهم لا يعلمون**»[٢]. ولما أبطأت قريش عن الإسلام واشتدَّ إعراضها، دعا عليهم ﷺ، فأخذتهم سَنَةٌ[٣] حتى أكلوا الميتة والجيف، فجاء أبو سفيان، وقال: «**إن قومك قد هلكوا فادعُ الله لهم، فدعا ﷺ لهم فسُقُوا**»[٤].

---

(١) فتح الباري ٦/ ٣١٦، وانظر: مكانة النبي ﷺ عند ربه: ٢١.

(٢) صحيح البخاري ١٢/ ٢٨٢، برقم: ٦٩٢٩، ك: استتابة المرتدين، ومسلم ٣/ ١٤١٧، برقم: ١٧٩٢، ك: الجهاد.

(٣) أي: قحط.

(٤) أخرجه البخاري ٢/ ٤٩٢، برقم: ١٠٠٧، ١٠٢٠، ك: الاستسقاء.



٥ـ وأما في حروبه ومعاركه معهم: فقد حوت سيرته ﷺ مواقف رائعة في الرحمة والشفقة، وذلك بالرغم من شدَّة عداوتهم له، وتآمرهم ضده، وبغيهم عليه، وسعيهم بكل الطرق لاستئصال دينه، ووَأدِ دعوته. فمن هذه المواقف العطرة في رحمته ﷺ بأعدائه في حربه معهم:

أ ـ نهيُه ﷺ عن قتل النساء والصبيان.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما: «**أن امرأةً وُجدت في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولةً، فأنكَرَ النبي ﷺ قَتْلَ النِّساءِ والصِّبْيان**»(١). وكان ﷺ إذا أرسل جيشاً أوصاه بعدم قتل الوِلْدان(٢).

ب ـ نهيُه ﷺ عن المُثْلةِ والغَدْر.

فقد كان ﷺ إذا بعثَ سريَّةً لقتال العدو أوصاهم بقوله: «**سيروا باسم الله، وفي سبيل الله، قاتلوا من كَفَر بالله، ولا تَمْثُلوا(٣)، ولا تَغْدِروا(٤)، ولا تقتُلوا**

(١) أخرجه البخاري ٦/ ١٤٨، برقم: ٣٠١٤، ٣٠١٥، ومسلم ٣/ ١٣٦٤، برقم: ١٧٤٤، كلاهما في الجهاد.

(٢) صحيح مسلم برقم: ٣/ ١٧٣١، ك: الجهاد.

(٣) يقال: مَثَل بالقتيل، إذا جَدَع أنفه أو أذنه، أو شيئاً من أطرافه، ومَثَّلَ بالتشديد للمبالغة، والاسم: المُثْلَة. (النهاية: مثل، مختار الصحاح: م ث ل).

(٤) الغَدْر: تركُ الوفاء. (مختار الصحاح. غدر).

وليداً[1]»[2].

ج ـ الإحسان إلى أسراهم، وحسنُ معاملتهم، والمنُّ عليهم.

«فلما أَسَرَ المسلمون المشركين في معركة بدر، استشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر في شأنهم، فأشار أبو بكر بأخذ الفِدْية منهم، وأشار عمر بقتلهم، فهَوِيَ[3] النبي ﷺ ما قال أبو بكر؛ تغليباً لجانب الرحمة على جانب العقوبة، فأخذ منهم الفِداءَ»[4].

فحصل ببركة هذه الرحمة النبوية والرفق المحمدي خيرٌ كثيرٌ: بإسلام أكثر هؤلاء الأسرى، وخروج من خرج من أصلابهم من المسلمين، وحصول القوة للمسلمين بأخذ الفداء[5].

وأوصى ﷺ أصحابه يوم بدر بالأسارى، فقال: «**استوصوا بهم خيراً**»،

---

(١) الوليد: الطفل، وجمعه: وِلْدانٌ. (النهاية: ولد).

(٢) أخرجه ابن ماجه ٢/ ٩٥٣، برقم: ٢٨٥٧، ك: الجهاد، وحسَّن إسناده في زوائد ابن ماجه ـ كما نقله محقق السنن ـ وقال الألباني: حسن صحيح. صحيح سنن ابن ماجه برقم: ٢٣٠٦.

(٣) أي: استحسنه وأحبه.

(٤) أخرجه مسلم ٣/ ١٣٨٥، برقم: ١٧٦٣، ك: الجهاد، وانظر: زاد المعاد ٣/ ١١١، تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٨ـ١٩.

(٥) انظر: زاد المعاد ٣/ ١١١.

فكان أصحاب النبي ﷺ يؤثرونهم بالخبز ويأكلون التمر؛ لوصية النبي ﷺ لهم[1]. «**فكان في إكرامه للأسرى مظهرٌ فريدٌ من مظاهر الرحمة**»[2].

د ـ منعه ﷺ من التفريق في السَّبي بين الوالدة وولدها.

فقد قال ﷺ: «**من فرَّق بين والدةٍ وولدها**[3]**، فرَّق الله بينه وبين أحبَّته يومَ القيامة**»[4].

***

المطلب الثالث: معالم الرحمة في علاقته ﷺ بالمعاهدين والمستأمنين.

المعاهَدُ: هو الذي له عَهْدٌ ـ وهو الأمان والمَوْثق ـ مع المسلمين، سواء كان بعقد جزية، أو هدنة مع السلطان، أو أمان من مسلم.

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٢/ ٣٩٣، برقم: ٩٧٧، قال الهيثمي: إسناده حسن. مجمع الزوائد ٦/ ٨٦.

(٢) نبي الرحمة: ٢٣٨.

(٣) وذلك ببيع أو هبة أو نحوهما. فيض القدير ٦/ ١٨٧.

(٤) أخرجه الترمذي ٤/ ١٣٤، برقم: ١٥٦٦، ك: السير، وحسَّنه، وصححه الحاكم على شرط مسلم. المستدرك ٢/ ٥٥، ورمز له السيوطي بالصحة في الجامع الصغير برقم: ٨٨٨٧، ووافقه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم: ٦٤١٢.

وأكثر ما يُطلق على أهل الذِّمَّةِ، سُمُّوا بذلك لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم وضمانهم، ويقال له أيضاً: المُستأمن[1].

ولقد كان من معالم رحمته ﷺ بهذا الصنف من المخالفين:

١ـ وصيته ﷺ بالوفاء بعهدهم، والنهي عن خيانتهم أو الغدر بهم.

فقد قال ﷺ: «**من كان بينه وبين قوم عهدٌ، فلا يَشُدُّ عُقْدةً ولا يحلُّها، حتى ينقضي أمَدُها أو يَنْبِذْ إليهم على سواء**»[2].

والمعنى: أنَّ من كان بينه وبين قومٍ من غير المسلمين عقد أمانٍ إلى وقتٍ محدَّدٍ، فلا ينقض العهد ولا يغيره حتى تنقضي غايته المحددة، فإذا خاف منهم خيانةً أخبرهم بنقض العهد بينه وبينهم؛ لكي لا يكون غَدْراً[3].

٢ـ تحريم قتلهم بغير حقٍّ.

فقد جاء النهي والزجر والوعيد الشديد عنه ﷺ في قتل المعاهد، فقال

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث ٢/ ١٦٨ (ذمم)، ٣/ ٣٢٥ (عهد)، تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٦٣، فتح الباري ١٢/ ٢٥٩، فيض القدير ٦/ ١٩٣.

(٢) أخرجه أبو داود ٣/ ١٩٠، برقم: ٢٧٥٩، ك: الجهاد، واللفظ له، والترمذي ٤/ ١٤٣ برقم: ١٥٨٠، ك: السير، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم: ٦٤٨٠.

(٣) انظر: تحفة الأحوذي ٤/ ٥٣٣، رحمة للعالمين: ٦٠.

ﷺ: «**من قتل معَاهَداً لم يَرَحْ**[1] **رائحة الجنة، وإنَّ ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً**»[2]. وفي رواية: «**من قتل قتيلاً من أهل الذِّمَّة...**»[3].

٣ـ تحريم ظلمهم وأذيتهم والإساءة إليهم.

قال ﷺ: «**ألا من ظَلَمَ مُعَاهَداً، أو انتقصه، أو كلَّفَه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسٍ، فأنا حَجيجُه**[4] **يوم القيامة**»[5].

***

(١) أي: لم يشُمَّ ريحها. (النهاية: روح).

(٢) أخرجه البخاري ٦/ ٢٦٩، برقم: ٣١٦٦، ك: الجزية والموادعة.

(٣) السنن الكبرى للنسائي ٦/ ٣٣٦، برقم: ٦٩٢٦، ك: القسامة.

(٤) أي: مُحَاجِجُه ومغالبه بإظهار الحُجَّةِ عليه. (النهاية: حجج).

(٥) أخرجه أبو داود ٣/ ٤٣٧، برقم: ٣٠٥٢، ك: الخراج والإمارة، والبيهقي ٩/ ٢٥٠، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم: ٤٤٦، وانظر: نبي الرحمة: ٢٥٣.

الخاتمة

إن العيش في رحاب السيرة النبوية، ومدارسة الأخلاق والشمائل المحمدية، والعمل على التخلق بها، وترسمها سلوكاً عملياً في حياة المسلمين، ثم الدعوة إليها ونشرها والتعريف بها، لمن أهم المهمات، خاصة في هذا العصر الذي صوَّب فيه الحاقدون والمغرضون من أعداء الملة والدين سهامهم إلى الإسلام ونبيِّ الإسلام، محاولين النيل من شخصه الكريم، والطعن في أخلاقه، وتشويه صورته.

وإن قيام أبناء هذه الأمة بدورهم في صدِّ هذه الهجمة الشرسة ـ كلٌّ بما يستطيعه ـ لمن أوجب الواجبات، وفاءً بحقه ﷺ علينا، وردّاً للأكاذيب والافتراءات التي يُروِّجون لها زوراً وبهتاناً، على أن يتم ذلك بمنهجية مدروسة، وفي إطار جهود منظمة، بعيداً عن الانفعالات العاطفية التي تضر أكثر مما تنفع.

وإن هذا المؤتمر المبارك ـ الذي يُعدُّ هذا البحث إسهاماً في فعالياته ـ يأتي ضمن هذه الجهود التي تهدف إلى التعريف بنبي الرحمة، والتنويه بأخلاقه وشمائله وسيرته العطرة، وردِّ التهم الباطلة الموجهة إلى شخصه.



أشار هذا البحث إلى أن مبعثه ﷺ كان رحمة للعالمين، ونوَّه بعظمة خُلُق «الرحمة» المحمدية، وأنَّ ذلك نابعٌ من ربانية مصدرها، وبيَّن أنها رحمةٌ عامةٌ شاملةٌ أخلاقية سامية عادلة، وأن الأمة المحمدية أمة مرحومة، ثم استعرض البحث جانباً مهماً من معالم هذه الرحمة النبوية: وهو جانب الرحمة في علاقته ﷺ بمجتمعه، وذلك بكل فئاته وطبقاته، وذكر البحث نماذج حيَّة ومواقف عملية تظهر فيها رحمته ﷺ بكل فئات المجتمع: كبيرهم وصغيرهم، ذكرهم، وأنثاهم، مسلمهم وكافرهم، غنيهم وفقيرهم، قويهم، وضعيفهم.

ويوصي الباحث بضرورة عناية المسلمين بسيرة نبيهم ﷺ وشمائله وأخلاقه: درساً لهاً وتعلماً، وتمسكاً بها، وتطبيقاً، ثم دعوة إليها ونشراً وتعريفاً؛ حتى تؤتي جهود الدفاع عن مقام نبينا ﷺ ثمارها، وإلا فكيف يُعقل أن ندعو غير المسلمين إلى احترام نبينا ﷺ وتوقيره، ومنا ـ نحن المسلمين ـ من يجهل قدره، ولا يعرف حقه، بل ويهمل تعاليمه ويهجر سنته؟!

ويدعو الباحث إلى تبنِّي الحوار الهادف الهادئ مع عقلاء الغرب ومثقفيهم، والمنصفين منهم، وذلك على جميع المستويات، ومن خلال كل الطرق والسبل المتاحة والقنوات. ويرى ضرورة عقد مثل هذه الندوات والمؤتمرات بصفة دورية، مع الاهتمام بتفعيل قراراتها وتوصياتها، ومتابعة آثارها، مع

الحرص على التواصل الدائم بين المشاركين فيها.

والله أسأل أن ينفع بالجهود، وأن يسدِّد الخطى، ويلهم الرشد والصواب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *



قائمة المراجع

(١) **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان،** ترتيب علاء الدين علي بن بلبان الفارس (ت ٧٣٩هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١، ١٤٠٧هـ.

(٢) **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل.** محمد ناصر الدين الألباني، إشراف: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط:١، ١٣٩٩هـ.

(٣) **الاستيعاب في أسماء الأصحاب.** ابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ)، مطبوع بهامش الإصابة. (انظر: الإصابة).

(٤) **الإصابة في تمييز الصحابة.** ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (ت ٨٥٢هـ)، مطبعة السعادة، مصر، ط: ١، ١٣٢٨هـ.

(٥) **الأنوار في شمائل النبي المختار.** البغوي، الحسين بن مسعود البغوي، (ت ٥١٦هـ)، تحقيق: إبراهيم اليعقوبي، دار المكتبي للطباعة والتوزيع، دمشق، ط: ٢، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

(٦) **تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي.** المباركفوري، محمد بن عبد الرحمن بن عبدالرحيم (ت ١٣٥٣هـ)، تحقيق: عصام الصبابطي، دار الحديث، القاهرة، ط: ١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

(٧) **التعريفات**. الجرجاني، علي بن محمد بن علي (ت ٨١٦هـ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: ٢، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

(٨) **تفسير القرآن العظيم**. ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (٧٧٤ هـ)، تحقيق: سامي السلامة، دار طيبة، الرياض، ط: ١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

(٩) **تهذيب اللغة**. الأزهري، محمد بن أحمد الأزهري (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق: د عبد الله درويش، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

(١٠) **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر (ت ١٣٧٦هـ)، تحقيق: سعد بن فواز الصميل، دار ابن الجوزي، الدمام، ط:١، ١٤٢٢هـ.

(١١) **جامع الترمذي**. الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وجماعة، نشر: مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط:٢، ١٣٩٨هـ.

(١٢) **الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير**. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ)، دار المعرفة، بيروت، ط: ٢، ١٣٩١هـ. (ومعه: فيض القدير شرح الجامع الصغير).

(١٣) **خاتم النبيين** ﷺ. محمد أبو زهرة، عناية: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية، بيروت.

(١٤) **خطب مختارة**. إعداد: وكالة شؤون المطبوعات والنشر بوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ.



(١٥) **رحمة للعالمين**. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، ط: ١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

(١٦) **الرحمة والعظمة في السيرة النبوية**. محمد بن إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة، الرياض، ط: ١، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

(١٧) **زاد المعاد في هدي خير العباد**. ابن القيم، محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار، ط:٣، ١٤٠٦هـ.

(١٨) **سلسلة الأحاديث الصحيحة**. محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط:٢، ١٣٩٩هـ.

(١٩) **السنن**. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ)، تحقيق: عزت عبيد الدعاس، نشر: محمد علي السيد، حمص، سوريا، ط: ١، ١٣٨٨هـ.

(٢٠) **السنن**. ابن ماجه، محمد بن يزيد بن ماجه، القزويني (ت٢٧٥ هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار: إحياء الكتب العربية.

(٢١) **السنن الصغرى - المجتبى -**. النسائي، أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣ هـ)، إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢٢) **السنن الكبرى**. النسائي، أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣ هـ)، ضمن الموسوعة الحديثية، للأرنؤوط، وجماعته، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط:١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

(٢٣) **السنن الكبرى**. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨هـ)، دار المعرفة، بيروت.

(٢٤) **سيرة الرسول ﷺ**. محمد عزة دروزة، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٣٦٧هـ، ١٩٤٨م.

(٢٥) **شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال**. العز بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ)، تحقيق: حسين بن عكاشة، دار ماجد عسيري، جدة، ط:١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

(٢٦) **شخصية الرسول ﷺ ودعوته في القرآن الكريم**. د. محمد علي الهاشمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط: ٤، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

(٢٧) **شرح السنة**. البغوي، الحسين بن مسعود (ت ٥١٠هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط:١، ١٤٠٠هـ.

(٢٨) **شرح صحيح مسلم**. النووي، محيي الدين يحيى بن شرف (ت ٦٧٦ هـ)، تحقيق: عصام الصبابطي، ورفاقه، دار أبي حيان، القاهرة، ط:١، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

(٢٩) **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**. القاضي عياض، عياض بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤ هـ)، تحقيق: عامر الجزار، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

(٣٠) ٣١ـ**صحيح البخاري**. البخاري، محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ)، تصحيح: محب الدين الخطيب، إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض. (مطبوع مع شرح فتح الباري).

(٣١) **صحيح الجامع الصغير وزيادته**. محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط:١، ١٣٨٨هـ.



(٣٢) **صحيح سنن ابن ماجه**. محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط:١، ١٤٠٧هـ.

(٣٣) **صحيح مسلم**. مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري (ت ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، ١٤٠٠هـ.

(٣٤) **عظيم قدره ﷺ ورفعة مكانته عند ربه ﷻ**. د. خليل إبراهيم ملا خاطر، ط: ٦، ١٤٠٥هـ.

(٣٥) **فتح الباري شرح صحيح البخاري**. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (ت ٨٥٢ هـ)، رئاسة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد. (انظر: صحيح البخاري).

(٣٦) **فيض القدير شرح الجامع الصغير**. المناوي، محمد بن عبد الرؤوف، دار المعرفة، بيروت، ط:٢، (مطبوع مع الجامع الصغير).

(٣٧) **لسان العرب**. ابن منظور (ت ٧١١ هـ)، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، وهشام محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة.

(٣٨) **مجالس في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾**. ابن ناصر الدين الدمشقي (ت ٨٤٢ هـ)، تحقيق: محمد عوامة، مؤسسة البيان، لبنان، دار القبلة، السعودية، ط:١، ١٤٢١ هـ، ٢٠٠٠م.

(٣٩) **مختار الصحاح**. الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت ٦٦٦ هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط:١، ١٩٦٧م.

(٤٠) **المرحومون في السنة النبوية**. محمد بن محمود الإسكندري، دار ابن حزم، بيروت، ط: ١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

(٤١) **المستدرك على الصحيحين**. الحاكم، محمد بن محمد (ت ٤٠٥هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٤٢) **المسند**. الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، ضمن الموسوعة الحديثية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ورفاقه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط:١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

(٤٣) **مسند أبي يعلى الموصلي**. أحمد بن علي بن المثنى التميمي (ت ٣٠٧ هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت، ط: ١، ١٤٠٩هـ.

(٤٤) **معالم السنن**. الخطابي (ت ٣٨٨هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ومحمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت. (مطبوع مع مختصر المنذري وتهذيب ابن القيم).

(٤٥) **المعجم الوسيط**. إبراهيم مصطفى وجماعة، المكتبة الإسلامية، تركيا.

(٤٦) **مكانة النبي ﷺ عند ربه كما يصورها القرآن الكريم**. د. عبد الرحمن بن عبد الجبار هوساوي، دار الذخائر، ط: ١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

(٤٧) **من لطائف التفسير**. أحمد فرح عقيلان، دار اليقين، مصر، ط: ١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

(٤٨) **موسوعة الآداب الإسلامية**. عبد الله بن محمد المعتاز، دار السلام، الرياض.

(٤٩) **نبيُّ الرحمة** . محمد مسعد ياقوت، دار الخراز، جدة، ط:١، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

(٥٠) **النهاية في غريب الحديث**. ابن الأثير، المبارك بن محمد (ت ٦٠٦ هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود الطناحي، المكتبة الإسلامية.

(٥١) **وميض من الحرم، خطب ومواعظ من المسجد الحرام - المجموعة الثانية** ـ د. سعود ابن إبراهيم الشريم، دار الوطن، الرياض، ط: ١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

* * *

الجمعية العلمية السعودية للسنة وعلومها (سنن)



هاتف : ٢٥٨٢٧٤٩ - ١ - ٠٠٩٦٦

فاكس: ٢٥٨٢٧٤٣ - ١ - ٠٠٩٦٦

المملكة العربية السعودية

ص . ب ٤٦٨١١ الرياض ١١٥٤٢

www.sunnah.org.sa
sunnah@sunnah.org.sa